رواء

مجلة فكرية دورية
تصدر عن هيئة الشام الإسلامية

حركة الجماهير



العدد الثالث
شوال ١٤٤١ هـ
يونيو/ حزيران ٢٠٢٠

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

تأصيل	حضارة وفكر	دعوة	نظرات نقدية	قضايا معاصرة	تزكية	قراءات
مواد تتناول تأصيل المنهج، وتقعيده ووضع ضوابطه وأسسه بصورة بنائية.	مواد تتناول قضايا حضارية وفكرية.	مواد تتناول فقه وأصول الدعوة، والأساليب والوسائل والتجارب الدعوية.	لتصحيح المفاهيم والتصورات.	مواد تتناول السياسة الشرعية ومآلات الأمور، إضافة إلى تطبيقات المصالح والمفاسد على القضايا المستجدة.	في التربية والتزكية والأخلاق.	قراءات في الكتب والرسائل العلمية ونقدها وإظهار محاسنها.

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:

rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

رَواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر مؤقتًا
كل شهرين عن
هيئة الشام الإسلامية

هيئة الشام الإسلامية

رئيس مجلس الإدارة
د. خير الله طالب

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل على العنوان التالي:
rawaa@islamicsham.org

فهرس الموضوعات



كلمة التحرير

أرض المعراج .. من الأحق بها؟

ابتليت الأمة بوقوع المسجد الأقصى والأرض المباركة في أسر المحتل الغاصب منذ ما يقرب من قرن من الزمان(١)، وقد كان هذا البلاء مقدّمةً لبلاءات كثيرة، ليس أوّلها تهجير أهل فلسطين، والتمكين لنظام طائفي باطني في سورية يحمي حدود المحتلّ الغاصب، وليس آخرها تسابق محموم للتطبيع مع المحتل وتقبّل وجوده، فضلاً عن تجميل صورته بتحميل سجلّ إجرامه على الضحية، وصولاً إلى التعاون معه ومناصرته، وتسخير مقدّرات البلاد والعباد لخدمة مشروعه!

ومن أبرز صور التطبيع مع الكيان المحتلّ: الكلامُ -غير المسبوق- عن أحقّية اليهود الغاصبين في أرض فلسطين، بزعم وجود بني إسرائيل التاريخي في فلسطين منذ القِدم، وتصوير المسألة على أنّها صراع شعبين لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وأنّه متى ما أسّس المحتلّون دولةً وأصبحوا فيها مواطنين بدعمٍ دولي فقد انتهت القضية بالنسبة لنا، وينبغي أن نعترف لهم بها، مدفوعين بمواقف فكرية وسياسة معيّنة.

وقد تنوَّع ظهور هذا التطبيع في مقالاتٍ تُنشر بين الفينة والأخرى، وأعمالٍ إعلامية ودرامية، والتي لا تخرج عن كونها صدىً لما يطرحه المحتلُّ نفسه من مزاعم وادّعاءات وأكاذيب، مرافقةً لتسابق في التطبيع العملي في مجالات متعدّدة.

وقد انبرى العديد من الغيورين للردّ على هذه الدعوى بالمنطق التاريخي نفسه الذي بُنيت عليه الشبهة، فبيّنوا بالدلائل التاريخية أنّ الوجود المعروف لبني إسرائيل على أرض فلسطين جاء بعد عدّة قرون من سكنى (الكنعانيين) و(الآموريين) بها، وهما قبائل هاجرت من شبه الجزيرة العربية حوالي ٢٦٠٠ قبل الميلاد، وقد دلّت على ذلك العديد من الآثار التاريخية، بالإضافة إلى تاريخ انتقال بني إسرائيل الذي ينصُّ على نزولهم بأرض معمورةٍ قبل ذلك، كما تنصُّ عليه التوراة والروايات التاريخية قاطبة.

(١) في أبريل/نيسان ١٩٢٠م اجتمع مندوبو «دول الاتفاق» (فرنسا وبريطانيا) المنتصرة في الحرب العالمية الأولى في مدينة سان ريمو الإيطالية فيما سُمّيَ مؤتمر سان ريمو لتعديل اتفاقية سايكس-بيكو وتقرير الشكل النهائي لتقسيم الأراضي التي اختُلت من الدولة العثمانية. في هذا المؤتمر اتفق الطرفان على منح فلسطين لبريطانيا وتعديل المتفق عليه سابقاً. تاريخ توجهات بريطانية - شرقية: مذكرات السير رونالد ستورس: ترجمة رؤوف عباس، القاهرة، ص (٤٠٠).

فإذا كان دليلُ الأحقّية يقوم على الأقدمية في الإقامة والعمارة: فبنو إسرائيل مسبوقون بسُكنى تلك البلاد، وقد جاؤوا لاحقين، ثمّ إنّها قد خرجت من تحت أيديهم من مئات السنين وحكمها أقوام عديدون كان آخرهم المسلمون، فإن كان هناك حقّ قديم فالحقّ يتنازعه عدة أقوام.

وإذا كانت الأحقّية تقوم على الوجود: ففرق بين وجودٍ أصيل عمل على عمارة الأرض دون إضرار بآخرين، وبين وجودٍ طارئ قام على احتلالٍ وتهجيرٍ وغصبٍ وتهجير أهل الأرض والأملاك، وسرقةً منجزاتهم وتدميرها.

أما إذا كانت الأحقية تقوم على فرض الأمر الواقع: فالأمر سجالٌ لم ينته.

ما سبق إنّما هو مناقشة في سياق التنزُّل في النقاش فحسب، فالجانب التاريخي ليس هو الجانب الأهمّ في مسألة الأحقّية في الأرض، وينبغي ألا ننجرف مع هذه المزاعم والرّد عليها فتنسينا الجوانب الأهم، والتي يمكن تناولها من خلال الأسئلة التالية:

- **ما هي أرض فلسطين؟**
- **وما معيار الأحقّية فيها؟ ومن يعطيها؟**
- **ومَن المخاطَب بوراثتها؟**
- **وأخيراً.. من الأحق بأرض فلسطين؟**

ما هي أرض فلسطين؟

أرض الشام أرضٌ مقدّسة، وأعظمها قداسة «بيت المقدس» التي فيها المسجد الأقصى الذي بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أيُّ مسجد وضع في الأرض أوّل؟ قال: «المسجد الحرام». قال قلت: ثمَّ أي؟ قال: «ثمَّ المسجد الأقصى». قال قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة. رواه البخاري ومسلم، وبيت المقدس في أرض تعرف اليوم بفلسطين.

وقد اختار الله تعالى هذه الأرض مبعثًا لكثير من الأنبياء، ومهبطًا لكثير من الرسالات، وختمها بمعراج نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وإمامته للأنبياء في المسجد الأقصى المبارك.

ثم كانت قبلةَ المسلمين للصلاة قبل أن تتحول إلى الكعبة المشرفة، وهي إحدى ثلاث جهات أذن الشرع بشدِّ الرحال إليها عل وجه التعبُّد، قال ﷺ: (لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إلى ثلاثةِ مساجد: مسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)[1].

ما معيار الأحقية في الأرض؟ ومن يملك حقَّ إعطائها؟

الأرض ومَن فيها ومَن عليها مُلك لله تعالى، وهو المتصرِّف فيها، وهو مَن يعطيها ويمنعها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

واليهود أنفسهم يؤمنون بهذا المعيار ويُدللون عليه بآية وردت في التوراة كما يروونها في سِفر التكوين: «فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلًا: لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذِهِ الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ».

ومن لا يؤمن بهذه المرجعية الدينية: فيُخاطَب بالمرجعية التاريخية الآنفة الذكر.

وأمَّا من كان يستدلُّ بالأمر الواقع: فإنّ التاريخ ودروسَه تقول إنّ وجود اليهودِ في فلسطين على مرِّ التاريخ كان طارئًا مؤقتًا، وما زالت المعركة الحالية قائمةً لم تُحسم، ومن أراد الاستسلام فلا يمثّل إلا نفسه.

مَن المخاطب بوراثة أرض فلسطين؟

في جميع هذه الحقب التاريخية أوكل الله تعالى إلى أنبيائه والصالحين من عباده رعاية المسجد الأقصى وعمارته وإمامته، وكان كلَّما انحرف فريقٌ من الناس عن الدين الحقّ أورث الله الأرض لعبادٍ آخرين، حتى بعث الله محمّدًا صلى الله عليه وسلّم بالدين الخاتم الذي ارتضاه للخلق جميعًا، وجعله ناسخًا لما قبله، وأمره بنشره في العالم كلِّه؛ ففتحت البلاد ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ومن تلك البلاد: أرض الشام المباركة، التي بشّر الرسول ﷺ بأنّها ستكون حصن الإيمان وفسطاط المسلمين حتى نزول عيسى عليه السلام.

فببعثة النبي ﷺ انتقلت الأحقّية بتلك البلاد والقيام بها إلى المسلمين بغضّ النظر عن عرقهم

(١) أخرجه البخاري (١١٣٩) واللفظ له، ومسلم (١٣٩٧).

أو جنسهم، وستبقى كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها كما جاءت بذلك البشارات الثابتة عن النبي ﷺ.

وينبني على ذلك أمران:

الأمر الأول: أنَّ المخاطب بوراثة أرض فلسطين هم أهل الحق أتباع الدين الحق، المؤمنون بالله تعالى السائرون على طريقه، وهؤلاء بعضهم أولى ببعض مهما اختلفت ألسنتهم وأقوامهم؛ لذا كان المؤمنون بمحمد ﷺ هم أتباع الأنبياء السابقين والوارثون لهم؛ لأنّهم يؤمنون بجميع الأنبياء ولا يفرّقون بينهم، ودينهم هو التوحيد الخالص، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَوَجَدَ الْيَهُودَ صِيَامًا يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَا هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي تَصُومُونَهُ؟) فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ عَظِيمٌ، أَنْجَى اللهُ فِيهِ مُوسَى وَقَوْمَهُ، وَغَرَّقَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، فَصَامَهُ مُوسَى شُكْرًا، فَنَحْنُ نَصُومُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (فَنَحْنُ أَحَقُّ وَأَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ فَصَامَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ) متفق عليه.

الأمر الثاني: وقع بنو إسرائيل في العديد من الأخطاء في هذا الأمر، وأهمها:

- زعمهم أنَّ الأرض المقدسة أورثها الله تعالى لهم بمثل قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، كان لجنسهم وقوميتهم، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨]، وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١].

- ظنُّوا أنَّ توريثَ الأرض لهم على سبيل التأبيد وأنّه لا يتغيّر ولا يتبدّل.

والصواب أنّ هذا الوعد كان لأسلافهم؛ لأنّهم كانوا موحّدين متّبعين لنبيّهم، وكان هذا العطاء مشروطًا بالبقاء على الإيمان، أمّا من بدّل وغيّر فإنَّ الوعد لا يشملُه، وهذا حال الأرض المقدّسة التي كانت قبل بني إسرائيل لغيرهم، وبعد ذلك للمسلمين، وكذلك سائر البلاد، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وهذا كان شأنَ بني إسرائيل قبل أن تورث الأرض لهم، قال تعالى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وبنو إسرائيل قد برعوا في تحريف كلام الله بحروفه ومعانيه، فهم غير مؤتمنين عليه ولا على تفسيره.

مَن الأحقّ بأرض فلسطين؟

الأحقِّيَّة بالأرض المقدسة لم تكن نابعة من الأسبقية التاريخية؛ بل بأمر الله تعالى لرسله ولعباده المؤمنين الذين يُقيمون دينه وشريعته، فقد جاء إليها إبراهيم عليه السلام مهاجرًا من العراق، وسكن فيها، وهذه الهجرة لم تكن أمراً عفوياً، أو بحثاً عن الماء والكلأ كما يحصل كثيراً مع البشر، بل كانت بأمرٍ ووحيٍ من الله، تماماً كما اختار الله وادي مكّة المكرّمة غيرِ ذي الزرع لسُكنى إسماعيل عليه السلام وأمِّه هاجر، وكما اختار الله أرضَ المدينة ذات النخل بين حرّتين لهجرة نبينا محمد ﷺ.

فكان من ذرية إبراهيمَ: إسحاق، ثم وُلد لإسحاقَ يعقوب (وهو إسرائيل الذي يُنسب له بنو إسرائيل)، وإسرائيل (نبي الله يعقوب عليه السلام) وُلد ونشأ فيها، ثمَّ انتقل وبنوه إلى مصر بعد أن تمكّن فيها ابنه يوسف عليه السلام وصار عزيزها، وكان ذلك بتقديرٍ من الله ووحيٍ منه أيضًا، وهناك توسّعت ذريتُه وكبرت حتى صارت اثنتي عشرة أسباطاً، حتى بُعث فيهم موسى عليه السلام فأمره ربّه تبارك وتعالى بالهجرة بقومه -بني إسرائيل- مُجدداً إلى فلسطين، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١].

ونلحظ هنا أنَّ الأحقِّيَّة بالأرض لم تكن نابعة من الأسبقية التاريخية؛ فلو استطردنا في منطق الأسبقية لقلنا بعدم أحقّية إبراهيم عليه السلام وذرّيته في فلسطين؛ لأنّه جاء إليها من العراق، ولا بأحقّية موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل فيها؛ فهم الذين خرج أجدادهم منها باختيارهم حتى سكنها غيرهم.



وبعد انتقال بني إسرائيل من مصر إلى فلسطين وانتصارهم على الجبّارين الوثنيين، صار حكم هذه البلاد إليهم، وصارت إمامة المسجد الأقصى إلى الأنبياء والصالحين منهم، ومن أبرزهم: نبيُّ الله سليمان بن داوود عليهما السلام، الذي أعاد بناءه كما هو معروف، وقد روى النسائي وابن ماجة وغيرهما بالسند إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (لما فرغ سليمان بن داوود من بناء بيت المقدس، سأل الله ثلاثًا: حكمًا يصادف حكمه، وملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحدٌ لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)، فقال النبي ﷺ: (أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة)، ولم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتى غزاه بختنصّر، فخرّب المدينة، وهدمها ونقض المسجد، وسبى بني إسرائيل إلى العراق.

وبعد أن عادوا إلى فلسطين، استمرَّ الأنبياء في إمامة بني إسرائيل، حتى كان آخرهم زكريا وابنه يحيى وابن خالته عيسى بن مريم عليهم السلام جميعاً.

وفي جميع هذه الحقب التاريخية .. كان الله قد أوكل إلى أنبيائه والصالحين من عباده رعاية المسجد الأقصى وعمارته وإمامته، كائنًا من كان مرتادوه والمصلون فيه (عرباً أم عبرانيين أم أقباطاً...).

ثم لما جاء الإسلام وفتح المسلمون البلاد وحكموها بدين الله الذي اختاره للعالمين؛ صارت رعاية المسجد الأقصى وعمارته وإمامته إليهم، وهم على مرّ العصور بشهادة التاريخ لا يمنعون أحدًا منه، وزوّاره كائنًا مَن كانوا آمنين مطمئنين.

الخلاصة:

إنّ حكم أنبياء بني إسرائيل أرضَ فلسطين كان حكمًا صحيحًا بأمر من الله تعالى، لكن اليهود فقدوا حقّهم في هذه الأرض وفي إمامة المسجد الأقصى بكُفرهم بأنبياء الله وبتآمرهم لقتل عيسى عليه السلام وبتحريفهم للتوراة، والنصارى فقدوا حقّهم في الأرض وفي الإمامة بكُفرهم بالله بقولهم بالتثليث، وبتحريفهم للإنجيل، ثم مَنَحَ الله تعالى هذا الحقَّ بهذه الأرض وإمامة المسجد الأقصى لأمة محمّد ﷺ، وابتدأ ذلك بإسرائه به ﷺ إلى المسجد الأقصى ليلاً في العهد المكّي من دعوته فصلى فيه قبل أن يُعرج به إلى السماء، وأنزل ذلك في القرآن الكريم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾، وحدّث النبيُّ ﷺ أمّته بفضائل الشام وبيت المقدس، وبشرهم ببشارات كثيرة متعلقة بها، ليرشدهم إلى أحقية أمّة الإسلام في هذه البلاد المباركة إلى أن تقوم الساعة.

فأحقيتنا في فلسطين ليست لأنّنا عرب وهم بنو إسرائيل؛ فالعرب فيهم المؤمنون وفيهم الكفار، واليهود كانوا مؤمنين أتباع أنبياءٍ حتى كفروا بأنبيائهم وجحدوا نبوّة محمد ﷺ؛ بل نحن أصحاب الحقّ في فلسطين لأنّنا أصحاب الدين الصحيح، وأتباع الأنبياء والرسل، وهم قد ضلّوا عن اتّباع أنبياء الله، وبدّلوا دينهم، وبغوا في الأرض. وهذا عامٌّ في جميع المسلمين (لا يخصُّ منهم قوماً دون قوم، أو شعباً دون شعب).



تأصيل

حتى لا يكون الانتساب إلى «أهل السنة» سبيلًا إلى التنازع

د. معن عبد القادر (*)

سلب مُسمى أهل السنة عن أي مذهب يورث الفرقة والتنازع مع أهله، إلا أنه لا مناص منه في الطوائف التي تبنّت بدعًا فاحشةً فرّقت الأمة وناصبتها العِداء كالخوارج والرافضة. أمّا حين لا تكون البدعة كذلك، وتكون المخالفة لمنهج أهل السنة في مسائل دون مسائل، فإنَّ الإنصاف يقتضي من المتخالفين التفصيل، فيُقال: خالفتْ أهل السنة في كذا، دون الإطلاق. وهذا أبعدُ عن التنازع، كما أنَّه يُحقق الأمر الشرعي ببيان الحق وحفظ الدين.

كلَّما ازدادت على أمة الإسلام المحن، وتكالبت عليها الأمم، تعالت الصيحاتُ التي تدعو إلى الوحدة والاجتماع، وتندُب الفُرقة والتنازع، وتُرجع إليهما أسباب العجز والهوان. والأمَّة وإن كانت كلُّها مخاطَبَةً بالائتلاف وترك الفُرقة، إلا أنَّ الخِطابَ يتوجَّه أوّل ما يتوجّه إلى المقدّمين في الأمة ورموزها ومرجعيّاتها، وعلى رأسِ هؤلاء العلماءُ وطلابُ العلم؛ لما لهم من مكانة وتقدير في قلوب عامة المسلمين، إذ يتطلّعون إلى مواقفهم ويَصدُرون عن أقوالهم(١).

ورغم صدق هذه الصيحات وغَيرتها، إلا أنها تبقى في دائرة الانفعال والكلام، ولن يكون لها أثر في الواقع ما لم نتلمّس خطوات عملية للتحرُّك نحو إزالة الفرقة والتخفيف من حدَّة التنازع.

وكثيرًا ما تنادي هذه الصيحات بإزالة الخلاف من جذوره سبيلًا إلى الاجتماع وترك الفُرقة، وهذا أمر مطلوب حين يمكن تحقيقه، لكن نعلم يقينًا بالشرع والعقل أن إزالة الخلاف تمامًا -والحديث عن قضايا كلية كبرى وليس عن جزئيات يسيرة- أمرٌ غيرُ ممكنٍ دائمًا، فهل نبقى حبيسين لهذا الوضع؟ الجوابُ: كلا، فحين لا يُمكن إزالة الخلاف فلننتقل إلى إدارة الخلاف، حتى لا نجعله سببًا للتنازع والفرقة والبغضاء ما أمكن.

(*) أكاديمي وكاتب في قضايا التربية والفكر.

(١) برغم الهزات التي تتعرض لها هذه المرجعيات لأسباب ذاتية وداخلية وخارجية، ليس المقال مكان تفصيلها.

حين لا يُمكن إزالة الخلاف ننتقل إلى إدارة الخلاف، حتى لا نجعله سببًا للتنازع والفرقة والبغضاء ما أمكن

أثر التصنيف في التنازع:

من جملة ما يُثير العداوات ويبثُّ الفرقة والتنازع مسألة التصنيف، وأقصد هنا بها تحديدًا: نسبة طائفة أو مدرسة أو مذهب بعينه إلى وصف لا يرضاهُ أصحابه، أو سلبُهم وصفًا يُثيرهم أن يُسلب عنهم.

أمّا كون التصنيف -بالتعريف الذي ذكرناه- يورثُ العداوة والفُرقة، فهذا أمرٌ لا يُجادَل فيه. يقول الشاطبي رحمه الله في تعليقه على حديث الافتراق المشهور، معللًا عدم تعيين تلك الفرق: «أيضًا فللسِّتر حكمةٌ أخرى وهي أنّها لو أظهرت مع أنَّ أصحابها من الأمّة لكان في ذلك داعٍ إلى الفرقة وعدم الألفة التي أمر الله ورسوله بها، وفي الحديث: (لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانًا). فإذا كان في مقتضى العادة أن التعريف بهم على التعيين يورث العداوة بينهم والفرقة لزم من ذلك أن يكون منهيًّا عنه»(١).

لكن الشاطبي رحمه الله يستدركُ أنَّ هذا غيرُ ممكن بإطلاق، فيقول في الموضع نفسه: «إلا أنْ تكونَ البدعة فاحشةً جدًّا كبدعةِ الخوارج... ويُلحق بذلك ما هو مثله في الشناعة أو قريب منه بحسب نظر المجتهد، وما عدا ذلك فالسكوتُ عنه أولى»(٢) فحين تكون البدعة فاحشة جدًا، لا يمكن السكوت عن التعيين، بل لا بدَّ من وصف الفِرقة المعيَّنة بالضلال، ولو ترتَّب على ذلك عداوةٌ وفُرقة. وقد عدَّ الشاطبيُّ من ذلك الفِرَقَ التي نبَّه الشرع على تعيينهم، والفرق التي تدعو إلى ضلالتها وتزيينها في قلوب العوام.

حين تكون البدعة فاحشةً جدًا – كبدعة الخوارج والرافضة – لا يمكن السكوت عن التعيين، بل لا بدَّ من وصف الفِرقة المعيَّنة بالضلال، ولو ترتَّب على ذلك عداوةٌ وفُرقة

ولنقف مع القيد الذي ذكره الشاطبي رحمه الله فنسأل: هل يمكن ضبط درجة «الفُحش» التي يسوغُ معها تصنيف هذه الفرق ووصفها بما لا ترضاه، ولا ينبغي السكوت عنه؟

١. من البديهي أن نُدخل في ذلك الطوائف أو المذاهب التي حملت اسم البدعة ذاتها، كالرافضة، أو الخوارج، أو القدرية، أو الجبرية، فإنَّ نسبة هذه الطوائف إلى الضلال تحصيلُ حاصل، إذ عنوانها يدلُّ عليه، وحين تُوصف بالضلال فالوصف مُنصرفٌ إلى العقيدة التي تظهر في اسمها، وهذا بيّن.

٢. وحيث كان المانع من التصنيف هو خوفُ الفُرقة وعدم الألفة، وما يورثه من العداوة والبغضاء، فإنَّ بعضَ البدع إنَّما قامت على العداوة والبغضاء وتفريق جماعة المسلمين، كبدعة الخوارج بتوسُّعهم في التكفير واستحلال دماء المعصومين، بل وجعْل مرتكب الكبيرة من المرتدِّين الذين هم أولى بالقتل من الكفار الأصليِّين، فصاروا يَقتُلون أهل الإسلام ويَدَعون أهل الأوثان. وقل مثل ذلك وأشدَّ منه في الرافضة الذين قام دينهم على بُغض الصحابة رضوان الله عليهم وتكفيرهم إلا عددًا قليلًا منهم، وعلى تكفير «النواصب» واستحلال دمائهم، وعلى أنَّ قتلهم سبيلٌ إلى الجنة، فهذه الفِرَق وأشباهها قد ناصبت الأمة العداء جهارًا نهارًا، فليس في تصنيفها بالضلال مزيدُ عداوةٍ بعد الذي أعلنوه، فانتفت المصلحةُ بالسكوت عنهم، بل الواجبُ فضحُهم والتحذير منهم بكل سبيل.

٣. وقد يُعدُّ من البدع الفاحشة جدًا تلك التي خالفت عقيدة جماهير الأمة في القديم والحديث، ولا يُعرف لرؤسائهم القائلين بها علمٌ ولا فضلٌ في الإسلام، إذ لا يقولُ بقولهم عالم معتبر، وضلالهم ظاهر لصغار طلبة العلم بل والعامة أحيانًا فضلًا عن العلماء، كبدعة «القرآنيين»، فهذه البدع في الغالب بدعٌ مكفِّرةٌ مُخرجةٌ من المِلّة، والحمد لله أنَّهم في الأمة قليل، ولا أثر لخلافهم وعداوتهم.

أما حين ينتسب المذهب إلى اسم لا دلالةَ فيه على باطل في ذاته، كالانتساب إلى عالمٍ، أو بلدٍ، أو اسمٍ

---

(١) الاعتصام، للشاطبي، ص (٧٢٥)، بتصرف يسير.

(٢) المرجع السابق.

> **بيانُ أنَّ هذا الاعتقادَ باطلٌ أو أن ذلك الأصلَ بدعةٌ محدثة، فهذا دينٌ لا مُداهنة فيه، وإنْ كان ينبغي أن يُستعمل في بيانه الحكمة**

استحسنهُ أصحابُه، ويكون فيه – بحسب نظر مخالفيه – حقٌ وباطل، ويكون الباطل – بحسب نظر مخالفيه أيضًا – في مسائل «علمية» ليست مبنيةً على بغضاءٍ وعداوة مع الأمّة، كأنْ تتعلَّق بالأسماء والصفات أو القدر أو موقع العقل من النقل وأشباهها، وينتسب إليه من لا يُنكَر علمُهم وفضلهم في الإسلام: فيجبُ الحذرُ من التصنيف بالمعنى الذي قصدناه وهو إطلاق وصف عام على المذهب لا يرضاه أصحابه؛ وذلك رعايةً للائتلاف ودفعًا للعداوة والفرقة.

ولا ينبغي أن يُفهم من ترك التصنيفِ «السكوتُ عن الحقِ» أو «تلبيسُ الحقِ بالباطل» أو «تمييعُ الحق»، إنَّما الكلام في إطلاق حكم عامٍ على مذهبٍ أو فرقةٍ أو طائفةٍ بعينها، أما التفصيل وبيان أنَّ هذا الاعتقادَ باطلٌ أو أن ذلك الأصلَ بدعةٌ محدثة، فهذا دينٌ لا مُداهنة فيه، وإنْ كان ينبغي أن يُستعمل في بيانه الحكمة بحسب المصلحة زمانًا ومكانًا وحالًا وجمهورًا.

التنازع حول اسم «أهل السنة»:

«أهل السنة» مصطلح يعني في استعماله الخاص عند المنتسبين إليه «أهل الحقّ»، وهو مُرادف عندهم لـ «الفرقة الناجية». وعليه فلا عجبَ أن يدَّعيه كثيرٌ من المذاهب الإسلامية، ولا عجبَ أيضًا أن يكون سَلبُه عن طائفةٍ أو مذهب بأن يقال: الطائفة الفلانية «ليست من أهل السنة»، سببًا للعداوة والبغضاء والتنازع والخصام.

وبناءً على ما تمَّ بسطه في مقدمة المقال نتساءل: هل يجب على كل مذهب يرى أهلُه أنهم على الحق – والكلُّ يرى أنَّه على الحق – أنْ ينُصَّ على حصرِ أهل السنة فيه وفي طائفته، وأنْ يُعلن أنَّ غيره ليس من أهل السنة؟

وحتى لا نُعمِّم الحديث فنضطرَّ إلى وضع الكثير من الضوابط والاحترازات، فإنني سأقتصر في إجابة السؤال على حالة حاضرة في الأمة، إذ هي التي حُرِّر المقال لأجلها، وهو تنازع اسم أهل السنة بين «أهل الحديث» و «الأشاعرة»[١].

وقد اجتهدتُ في المقال التزامَ لغةِ الحياد بين المذهبين ما أمكن، إذ ليس المقام مقام انتصار لأحدهما على الآخر، بل النصحُ لأنصار كلا المذهبين، فاقتضى الأمرُ الحياد، حتى أني تركت النقل عن العلماء السابقين من المدرستين حتى لا يُحسب النقلُ على هذا المذهب أو ذاك، إلا أن يكون النقل خارج محل النزاع.

ونُقرر ابتداءً أن الخلاف بين المذهبين خلافٌ في مسائلَ من الاعتقاد، وهو خلافٌ في أصولٍ لا فروع، ومن يُهوّن الخلافَ أو يُلفقُ بين المنهجين فهو لم يُحط بقواعدهما. وهو خلافٌ تاريخيٌّ منذ أيام الأئمة أحمدَ بن حنبلَ وابن كُلّاب، ثمّ البَربهاري والأشعري، ثم أبي جعفر وابن القشيري، ثم الجَيلاني والإسفرائيني، ثم ابنِ تيمية والسُّبكي، رحمهم الله أجمعين، ولا يزالُ الخلاف قائمًا إلى عصرنا هذا. وقد يتحول الخلاف إلى صراع، فيقوى أحيانًا ويخبو أحيانًا، وذلك بالنظر إلى وَرَع أعلام المذهبين في كُلِّ عصر، أو تدخُّل الحاكم في الصراع لصالحِ أحدِهما، أو استقواء أحدِ المذهبين على الآخر بالحاكم، أو حالة الأمّة من حيث الترف والترهُّل أو الجهاد والعمل.

ومع قولنا إنَّ الخلافَ بين المذهبين قائمٌ ومتّسع، إلا أن عوامَّ المسلمين لا يُدركون شيئًا من الفروقات بينهما، بل إنَّ كثيرًا من أتباع المذهبين من المُعاصرين لا يدركون كنْه الخلاف بينهما، وإنَّما يتناقلون عُمومياتٍ وعباراتٍ مُجملة من كلام السابقين، ونُتفًا من المسائل الخلافية المشتهرة، ويصطفُّ كل مجموعة من الأتباع مع متبوعيهم «ولاء» للمذهب، تعصُّبًا وتحزُّبًا.

من جهة أخرى، فإنَّه مهما قلنا عن الخلاف بينهما، فيبقى ما بينهما من التقارُب بالنظر إلى الفِرق الأخرى كبيرًا. كما أنَّ جماهير أهل العلم الموثوقين في العالم الإسلامي اليوم هم من أتباع هذين المذهبين تحديدًا، وهم في خندقٍ واحد أمامَ حربٍ ضروسٍ شرسةٍ على الهوية لا تُميز بينهما، فتنازُع أتباعِ المذهبين ومعاداة بعضهم لبعض وبالٌ كبيرٌ على الأمة.

(١) تطلق مسمّيات أخرى على هذه المدارس، واخترنا الأشهر تاريخيًا للتعريف بها.

أهل الحديث والأشاعرة في خندق واحد أمامَ حربٍ ضروسٍ شرسةٍ على الهوية لا تُميز بينهما، فتنازعُ أتباعِ المذهبين ومعاداة بعضهم لبعض وبالٌ كبيرٌ على الأمة

وفي الفترات العصيبة في التاريخ الإسلامي مثل أيام غزو التتار والهجمات الصليبية، لم تُفرِّق هذه المذاهبُ الأمّةَ، بل انضوى الجميع تحت مظلّة الإسلام الجامعة لمواجهة الخطر الداهم، بالرغم من استمرار مناظراتهم العلمية ورُدود بعضهم على بعض. وفي العصور التي ابتُلي فيها المسلمون بظهور أمر البدع الفاحشةِ كالرافضة والمُعتزلة والفلاسفة، انبرى لها المذهبان بالصدِّ والتفنيد، وكانت جُهودهم تتكامل في ذلك، ويُثني بعضهم على بعض، ويَعرفُ كلٌّ منهما للآخر فضلَه.

على ضوءِ ما تقدَّم، كيف ينظر كلُّ مذهبٍ إلى انتسابِ الآخَر إلى أهل السنة؟

ولعلَّنا نُشير هنا إلى مَسلك بعض أهل العلم بتقسيم مُصطلح أهل السنة إلى إطلاقين: إطلاقٌ عامٌّ في مقابل الفرق التي اتَّفق أهلُ العلم على ضلالها لمخالفتها أصولَ الإسلام كالرافضة والخوارج والقدرية والمرجئة، وخاصٌّ ليدلَّ على من سَلِمَ من الشبهات في الاعتقاد. وبهذا التقسيم فإنَّ كلًّا من المذهبين يُدخل المذهبَ الآخر في الإطلاق العامِّ، ولا يُدخله في الإطلاق الخاصّ. ولعلَّ في هذا التقسيم فوائدَ في سياقات أخرى، لكنّه في سياق النزاع حول الاسم لا يفعل شيئًا إلا أن ينقُل الصراع إلى ساحة الإطلاق الخاص، إذ يَبقى نفيُ اسم «أهل السنة» عن طائفَة ما بأيِّ اعتبار كان، سببًا للفرقة والعداوة.

من يدخل في «أهل السنة»؟

يمكن أن نُميِّز ثلاثة اتجاهات للعلماء في الانتساب إلى أهل السنة:

١. فريقٌ يدعو إلى استيعاب كلا المذهبين -ومذاهبَ أُخرى قريبةٍ منهما- تحت اسم أهل السنة، بإطلاق وحيد، ليس فيه عام وخاص.

٢. وفريقٌ ذهبَ إلى أنَّ من خالفَ أهل السنة في شيءٍ واحد أو أكثر من أصول العقيدة لم يكن من أهلها، وإذا لم يكن من أهلها جازَ أن يُقال عنهم: ليسوا من أهل السنة.

٣. وفريقٌ يرى أنَّ من خالف السنة في باب من أبواب الاعتقاد ووافقها في بابٍ آخر فهو من أهل السنة فيما وافق فيه السنةَ، وليس منهم فيما خالفهم فيه، وأنَّ إخراجَ قوم من مسمّى «أهل السنة» بإطلاق؛ لأنَّهم خالفُوا السنّة في بابٍ دون باب، فيه مُجانبةٌ للعدلِ والإنصاف، فإنّا إذا أطلقنا القول بأنَّهم ليسوا من أهل السنة، كان ذلك حُكمًا بأنهم خالفوا السنة في كل أبواب الاعتقاد، والأمر ليس كذلك؛ فقد وافقوا أهل السنة في بعضها دون بعض.

إخراجُ قومٍ من مسمّى «أهل السنة» بإطلاق؛ لأنَّهم خالفوا منهج أهلِ السنّة في كذا ووافقوه في كذا، فيه مُجانبةٌ للعدلِ والإنصاف

فأيُّ هذه الاتجاهات أولى بالاتباع؟

أمّا القول الأول، فهو في الحقيقة خلطٌ لا يَقبلُ به من يُمثل هذه المذاهب ويقرر منهجها فعلًا. ولعلَّ القائلَ به رأى أنَّ الخلاف بينهما مما يسوغ الخلاف فيه، وليس الأمر كذلك، فإنَّ الخلاف بينهما هو في مسائلَ وكلياتٍ كبرى، مثل طرائق الاستدلال، وسُلطة العقل والنقل، ومسائل الإيمان، والأسماء والصفات، والقَدَر، وأمثالها، ولا يُمكن بحالٍ أن نجعل أقوالهم الخلافية المتضادّة منهجًا لأهل السنة. فإمّا أنَّ الحقَّ في تقديم العقل على النقل حين بدوّ التعارض، أو أنَّه في تقديم النقل على العقل، وإما أنْ يكون الحقّ في إثبات الأسماء والصفات كما جاءت على ظاهرها من غير تأويل ولا تعطيل، أو أنَّه في التأويل لنفي توهم مشابهة صفات المخلوقين، وإما أنْ نقول إنَّ أوّل واجب على المكلف التوحيد، أو نقول أول واجب هو المعرفة، أو النظر، أو القصد إلى النظر. فالطريق إلى إزالة الخلاف هو أن يعود الجميع إلى الأصول ذاتها، وهذا طريقه الحوار والمُدارسة العلمية لا التلفيق ونسبة المتناقضات إلى منهج واحد، فهذا مما يتنافى مع القواعد العلمية.

وأما القول الثاني، فلا بدَّ من كلمةٍ بين يديه. فإنَّه وإنْ نُقل عن بعض الأئمة، إلا أنَّ النقل عنهم كان نقلًا مُخلًا في كثيرٍ من الأحيان، اقتصر بعض الناقلين على عبارات نُزعت من سياقها، أو رُبَّما أُخذت من كتب الردود والمناظرات والتي قد تحتد اللغةُ فيها، بخلاف التقريرات الهادئة. ولو قُرئت



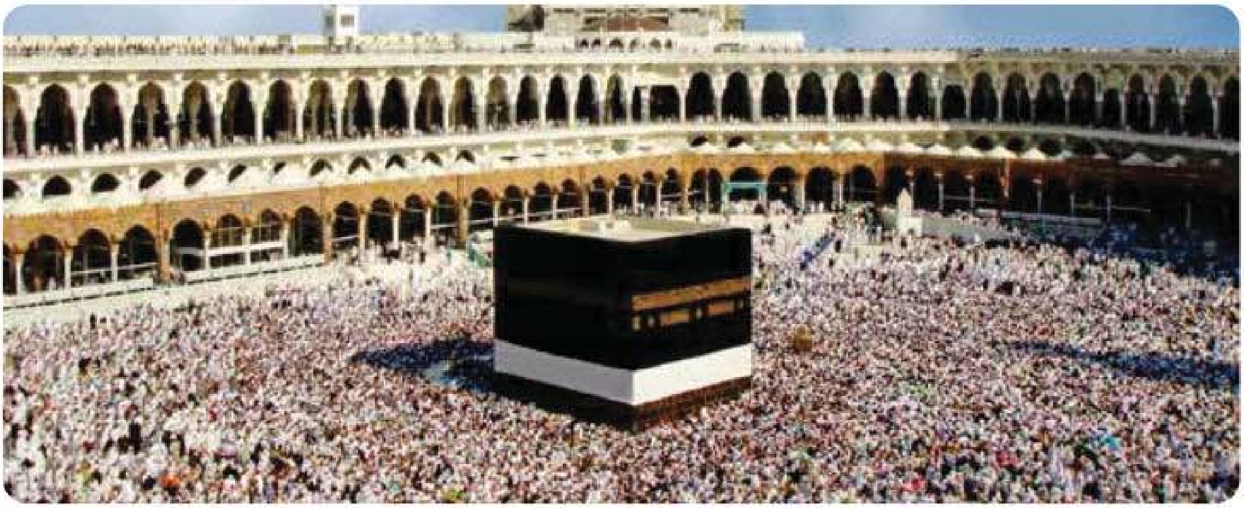
في سياقها، وجُمع إليها ما قيل في مواطن أخرى من الثناء على المذهب الآخر، وذكر فضل أهله وجهودهم في نصرة الإسلام والذبِّ عنه، لما تشكّلت هذه الصورة المتوهَّمة من الخصومة، بل لظهر فضلُ هؤلاء العلماء وأدبهم وإنصافهم في التعامل مع مخالفيهم. وإنَّ ما يعنينا هنا هو كلام أئمة المذهبين وأعلامِهما من المشهود لهم بالعلم والدين.

ثمَّ نقول: هل ما جاء عن بعض العلماء المتبوعين من كلا المذهبين من التصريح بإخراج المذهب الآخر من مسمى أهل السنة -باعتبار ما- يُلزم من بعدهم؟ ألا يجبُ على علماء كل عصرٍ النظر في المصالح والمفاسد، ومراعاة الأحوال والمآلات لهذا القول في عصرهم؟ فلئن كانت المعركة في عصرٍ سالفٍ معركةَ بدعةٍ وسنّة، فإن المعركة في عصرنا معركةُ كفرٍ وإسلام، لا تفرِّق بين مذهبٍ ومذهب. وليس الحديثُ هنا عن مسائلِ الخلاف ذاتها: هل منهج أهل السنة في الصفات مثلًا هو في الإثبات أو التفويض أو التأويل؟ فهذه عقائد ليست مما يتغيَّر حقُّها وباطلُها بتغير الزمان، وإنَّما الحديثُ عن التصريح بسلبِ اسمِ أهل السنة عن هذا المذهب أو ذاك.

بلى، يجبُ النظرُ في المصالح والمفاسد. فإنْ كان التصنيف يورثُ العداوات والإحن في وقتٍ الأمةُ أحوجُ ما تكون فيه إلى الاجتماع والألفة، فلا ينبغي الإصرار على تبنّي كلام بعض أهل العلم في عصرٍ من العصور، لم يكن فيه من المفاسد حينها ما نَجدُه الآن. وليس في ترك التصنيف تضييعٌ للدين ولا تمييعٌ له، فإن الدين يُحفظ ببيان الحق والباطل في كل قضية من القضايا المختلف فيها، دون الحاجة إلى وصف المذهب كُلِّه بوصفٍ عام.

وهذا هو موقف الفريق الثالث: التفصيل. فيقال: خالفَ المذهبُ منهجَ أهل السنة في كذا (بحسب اعتقاد المتحدِّث)، ووافقه في كذا. ولا شكَّ أنَّ هذا التفصيل أبعدُ عن تسبيب التنازع والفرقة من التعميم على المذهب كله. ولا يُظن أن الخلاف بين الفريق الثاني والثالث شكلي، فشتّان بين أنْ تقول: فلانٌ ليس من أهل السنة، وأن تقول فلانٌ خالفَ أهلَ السنة في مسائل، وكذلك الكلامُ عن الطائفة أو المذهب.

> **الطريق إلى إزالة الخلاف هو أن يعود الجميع إلى الأصول ذاتها، وهذا طريقه الحوار والمُدارسة العلمية لا التلفيق ونسبة المتناقضات إلى منهج واحد، فهذا مما يتنافى مع القواعد العلمية**



ومع الدعوةِ إلى تبنِّي التفصيل وتركِ التعميم، فإنَّ هذا التفصيل يجبُ حصره في الأوساط العلمية عند الحاجة إليه، وإلا فإنَّ الأولى الإمساكُ عن الخوض في هذه الخلافات في خضمِّ المعركة المشتركةِ للفريقين في ساحةِ الجهاد العسكري ضد استباحة بلاد المسلمين، وساحة الجهاد الفكريِّ ضدَّ هدم ثوابت الدين. أما مجالسُ العامة وميادينُ الدعوة فلا علاقةَ لها بهذه الخلافات، وينبغي تجنيبُها الخوضَ في هذه المسائل، «والواجبُ أمرُ العامة بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، ومنعُهم من الخوض في التفصيل الذي يوقعُ بينهم الفرقةَ والاختلاف؛ فإنَّ الفُرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله»[١].

ويجمُل بالفريقين حين تناول القضايا الخلافية في الأوساطِ العلمية أن يُراعوا أدبَ الخلاف، وأنْ يُنصف كلٌّ مخالفٍ صاحبَه، فإنك إن كنتَ تعتقدُ أنَّك على الحقِّ في مسألةٍ وأنَّ مخالفَك على الباطل، فهو أيضًا يعتقد ذلك، فعامله بما تُحب أن يعاملك به. واقرأ معي هذا النص الأدبي الراقي: نقل الذهبيُّ في ترجمته لابن قدامة (وهو على مذهب

> التفصيل في التصنيف محصور في الأوساط العلمية عند الحاجة إليه، مع أفضلية الإمساك عن الخوض فيه أثناء المعركة المشتركة ضد ثوابت الدين، أما مجالسُ العامة وميادينُ الدعوة فلا علاقةَ لها بهذه الخلافات

> يجبُ النظرُ في المصالح والمفاسد. فإنْ كان التصنيف يورثُ العداوات والإحن في وقتٍ الأمةُ أحوجُ ما تكون فيه إلى الاجتماع والألفة، فلا ينبغي الإصرار على تبنّي كلام بعض أهل العلم في عصرٍ من العصور، لم يكن فيه من المفاسد حينَها ما نجدُه الآن.

أهل الحديث) كلامًا لأبي شامة (وهو على مذهب الأشاعرة) رحمهم الله جميعًا، قال الذهبي: «وقال أبو شامة: كان (أي ابن قدامة) إمامًا علمًا في العلم والعمل، صنَّف كتبًا كثيرة، لكنَّ كلامه في العقائد على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه، فسبحان من لم يُوضِّح له الأمر فيها على جلالته في العلم، ومعرفته بمعاني الأخبار».

قلتُ (والكلام للذَّهبي): «وهو (ابن قدامة) وأمثالُهُ متعجِّبٌ منكم مع علمكم وذكائكم، كيف قلتم! وكذا كل فرقة تتعجب من الأخرى، ولا عجبَ في ذلك، ونرجو لكلٍّ من بذل جهده في تطَلُّب الحق أن يُغفر له من هذه الأمة المرحومة»[٢].

فأبو شامة لم يزد في إنكاره على ابن قدامة أن تعجب من حاله، والذهبي لم يزد على أنْ أزال سبب العَجَب بأرقِّ عبارة، ومع أن الذهبي رحمه الله يوافق ابن قدامة في مذهبه في العقائد إلا أنه لم يتعصَّب له، وأنصف كلا الفرقتين، وشملهما بدعائه، فاعجب من أدبهم جميعًا رحمهم الله تعالى.

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٢/ ٢٣٧).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ترجمة ابن قدامة (١٣/٢٤٠).



تزكية

دلائل الوحي في إنزال المطر

د. عمر النشيواتي (*)

في مختلف أحداث الكون دلائل على عظيم صنع الله تعالى، ودعوةٌ إلى التفكُّر والتأمُّل فيها بما يهدي إلى التعرُّف على وحدانية الله تعالى وعظمته، وانفراده بأحقِّية التوجُّه إليه بالعبادة، ومن أهم تلك الأحداث التي نراها ونرى آثارها في الكون والحياة: نزول المطر، فما علاقته بالوحي؟ وما أوجه التشابه بينهما؟ هذا ما سيوضحه المقال.

تصور -أيها النبيل- هذا المشهد!

سكونٌ مطبقٌ يعم الأرجاء، يشق صمته رياح تَهُب هبوبًا خفيفًا، ثم لا تلبث أن تشتد شيئًا فشيئًا حتى تجمع ما تفرق من سحاب ثم تثير الرياح ذلك السحاب، فتتلبَّدُ السماء بالغيوم ويشتد البرق والرعد وتظلم السماء، ثم لا يلبث المطر أن ينزل، فتُسقى به أرضٌ مواتٌ فتحيا بإذن الله.

ثم تسيل أودية الماء لتنتقل أجزاء من تلك المياه إلى أرض بعيدة لم يعلوها سحاب ولم تشهد نزول المطر، فتحيا هي الأخرى بإذن الله.

مشهد معتاد يتكرر في الأرجاء، لا تتوقف عنده كثيرًا عين المتأمل في كتاب الكون المفتوح، ولا تجد فيه غرابة.. إنما الذي يستوقفنا تكرارٌ لافتٌ لذكر أجزاء مختلفة من ذلك المشهد في كتاب الله الذي أُنزل هدى ورحمة للعالمين، فلم كان ذلك؟ وما هي الرِسائل والإشارات القرآنية من تلك المشاهد؟

يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِن آيَةٍ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرضِ يَمُرّونَ عَلَيها وَهُم عَنها مُعرِضونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

قال الضحاك: «كم من آية في السماء، يعني شمسها وقمرها، ونجومها وسحابها، وفي الأرض ما فيها من الخلق والأنهار والجبال والمدائن والقصور ولكن أكثر الناس، (يمرون عليها) أي على هذه الآيات غير متأملين لها ولا متفكرين فيها ولا ملتفتين إلى ما تدل عليه من وجود خالقها، وأنه المتفرد بالألوهية مع كونهم مشاهدين لها»[1].

(*) طبيب، وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه.

(١) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي (٥٩٣/٤).

> إن المتأمِّل في ظواهر الكون عمومًا وفي ظاهرة الدورة المائية خصوصًا، لن تُخطئ عينُهُ رسائلَ الهداية ودلالات الوحي وإشارات التذكير بالآخرة التي تتضمنها تلك الظواهر والمشاهد لو أعمل فيها عقله وقلبه..

تأمَّل تلك الرياح المرسلة التي تثير السحاب حتى يجتمع ويتراكم ثم ينزل منه الماء فتحيا به الأرض الميتة، إنها تشير إلى قصة الوحي والحياة والهداية التي تحصل للقلوب بها.

فإرسال الرياح يُشير إلى إرسال الأنبياء الكرام يحملون معهم الوحي النازل من السماء، والماء الطهور المبارك النازل من السحاب يُشير إلى الوحي المطهِّر النازل على القلوب.

هذه هي قصة التشابه بين دورة نزول المطر والوحي مجملة، ولنبين تلك المشاهد بشيء من التفصيل ونشير إلى دلالات تلك المشاهد.

إن المتأمِّل في ظواهر الكونِ عمومًا وفي ظاهرة الدورة المائية خصوصًا، لن تُخطئ عينُهُ رسائلَ الهداية ودلالاتِ الوحي وإشارات التذكير بالآخرة التي تتضمَّنها تلك الظواهر والمشاهد لو أعمل فيها عقله وقلبه.

إرسال الرياح:

تكررت الآيات التي ذُكر فيها إرسال الرياح في كتاب الله، إلا أن ما يلفت النظر فيها أنها كثيرًا ما تَرِد في معرِض ذِكر إرسال الرسل إلى أقوامهم، أو تَسبق الحديث عن تفاصيل أحداث الأنبياء مع أقوامهم! وكأنها تُشير لهذا المعنى.

مثال ذلك ما جاء في سورة الأعراف وهي السورة التي ساقت كثيرًا من قصص الأنبياء، وقد سُبقت تلك القصص بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

ثم تتابعت الآيات تتحدث عن تفاصيل قصص نوح ثم هود ثم صالح ثم لوط ثم شعيب ثم موسى عليهم السلام، بتفصيل لا تُشابهه سورة أخرى!

كذلك لو تأملت مطلع سورة الذاريات والتي تتناول قصص عدد من الأنبياء مع أقوامهم، مثل إبراهيم وقوم لوط وموسى وعاد وثمود ونوح ... لقد سُميت تلك السورة بالذاريات واستُفتحت بقوله سبحانه: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]. «والمراد بالذاريات: الرياح التي تذرو في هبوبها»[1].

كذلك هو الحال مع سورة الحِجر والتي جاء فيها تفاصيل أخرى من ذِكْر قصة خلق آدم، ثم قصة إبراهيم مع أضيافه، ثم قصة لوط، ثم أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب، ثم أصحاب الحجر وهم قوم صالح، ثم ذكر نبينا محمد ﷺ، قال تعالى قبل ذكر ذلك كله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وفي سورة الفرقان التي جاء فيها ذكر الأنبياء مجملًا، ورد بعدها بعدة آيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

وقد يكون من أهداف ذكر إرسال الرياح مع إرسال الرسل (إحياء الموتى)، وهذا مما يمكن أن يتبادر إلى الذهن، وانظر إلى هذه الصورة العجيبة في سورة الروم التي تجلي الموضوع وهنا لن ينقضي عجبك إن سألت عن سرِّ وُرود ذكر إرسال الرسل في سورة الروم بين آيتين جاء فيهما ذكر الرياح في سياق غريب عجيب!

حيث يقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٦-٤٨] إلى غيرها من المواطن التي لا تخطئها العين في كتاب الله لمن تتبَّعها وتدبَّرها والتي تؤيِّد ما ذكرنا من إشارة إرسال الرياح على إرسال الرسل والله أعلم.

وهنا يحسُن بنا التذكير بنعمة الله على البشرية بإرسال هؤلاء الرسل الكرام، الذين هم سببٌ في

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي (٨٠٨/١).

نجاة من نجى من البشر، والذين لا يستقيم إيمان أحد منّا إلا بالإيمان بهم ومحبَّتهم وتقديرهم، فما ظنُّك بنا لو كان ديدننا تذكُّر هؤلاء الرسل الكرام مع كل نسمة تهبُّ من الرياح وتحمل لنا غيثًا وخيرًا! ولك أن تتأمل الأثر البالغ لدوام مثل هذا الشعور وتفعيله فيمن حولنا من إخواننا وأبنائنا ومن نحب، كيف سيكون سببًا في زيادة الإيمان واليقين بالله ورسله وتذكُّر نعمة الله علينا بإرسالهم لشكرها والقيام بحقها كما لا يخفى.

> **يحسُن بنا التذكير بنعمة الله على البشرية بإرسال الرسل الكرام، مع كل نسمة تهبُّ من الرياح وتحمل لنا غيثًا وخيرًا! فما ظنُّك بنا لو كان هذا ديدننا؟ وكيف سيكون ذلك سببًا في زيادة إيماننا ويقيننا؟**

البرق والرعد:

أمّا البرق والرعد في القرآن فقد جاء ذكرهما في سور البقرة والرعد والنور والروم، وتأمَّل هذه الآيات لنبحث في رابطٍ يربط بينها وبين قصة الوحي والهداية.

قال سبحانه: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩-٢٠].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣][1].

إنَّ المتأمل في تلك المواطن ليلحظ أنَّ مما يجمع بينها هو ذكر الخوف والطمع الذي يحصل للعباد معهما، خوفٌ من صوت الرعد القاصف ومن نور البرق الخاطف، وطمع في المطر والغيث وفي الخير الذي يؤمل ويُرجى معهما، وكذلك هو الحال مع آيات القرآن وحُججه وبراهينه ودلائله التي تأتي بها رسل الله الكرام، وما يحصل بسببها من خوفٍ للمنافقين لما يتنزَّل في تلك الآيات والحُجج ما يَصفُ مرض قلوبهم بدقّةٍ بالغةٍ ويكشف سوءاتهم وما يكتُمونه في صدورهم ويعرِّيهم أمام الخلق: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

وفي المقابل من هذا ما يحصل من طمع ورجاء للمؤمنين، حيث يجدون في ذات الوحي بشارة خير لهم وانشراح في صدورهم واطمئنان في قلوبهم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

قال السعدي في آية البقرة الآنف ذكرها: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبصارهم﴾: «فهكذا حال المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده وتزعجهم وعوده، فهم يُعرضون عنها غاية ما يُمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيِّب الذي يسمعُ الرعد، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فهذا تُمْكِن له السلامة، وأما المنافقون فأنّى لهم السلامة»[2].

وتأمَّل هنا مرة أخرى في أثر هذا التفاعل بين الإنسان والكون وأهمية تنميته في أنفسنا وأبنائنا مع كل رعد وبرق نشهده، وما يحدثه ذلك من أثر في زيادة الإيمان والتعلق بالله والطمع فيما عنده والخوف من عذابه ومقته، والحذر من النفاق وأهله وسوء عاقبتهم!

الماء والمطر:

أمّا تشبيه الماء والمطر في كونه أصْلا لحياة الأبدان بالقرآن الكريم في كونه أصْلا لحياة الأرواح فهو أمر ظاهر لا يخفى. فقد جاء في عدد من سياقات القرآن الكريم اقتران ذكر القرآن والمطر، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ

(١) معنى: {يُزْجِي}: يسوق، و{الْوَدْقَ} أي: الوابل والمطر، و{سَنَا بَرْقِهِ} ضوء برق ذلك السحاب. ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥٧٠/١).
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤٤/١).

مِن ذِكرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِي ضَلالٍ مُبينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَديثِ كِتابًا مُتَشابِهًا مَثانِيَ تَقشَعِرُّ مِنهُ جُلودُ الَّذينَ يَخشَونَ رَبَّهُم ثُمَّ تَلينُ جُلودُهُم وَقُلوبُهُم إِلى ذِكرِ اللَّهِ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهدي بِهِ مَن يَشاءُ وَمَن يُضلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِن هادٍ﴾ [الزمر: ٢١-٢٣]

وقوله تعالى: ﴿وَما أَنزَلنا عَلَيكَ الكِتابَ إِلّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اختَلَفوا فيهِ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحيا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِها إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَسمَعونَ﴾ [النحل: ٦٤-٦٥].

تأمل هنا في اقتران ذكر تنزيل القرآن من السماء، وأنه هدىً ورحمة وحياةٌ للقلوب بذكر نزول الغيث من السماء رحمة للعباد، وحياة للأرض والنبات بالتفاتة عجيبة، قال ابن كثير: «وكما جعل تعالى القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك يحيي الله الأرض بعد موتها بما ينزله عليها من السماء من ماء»[1].

أوجه الشبه بين الماء والوحي:

وإذا تأمَّلنا أوجُه الشبه بين القرآن الكريم والمطر فسنلحظ بينهما تشابها كبيرًا، من ذلك نزولهما من عند الله تعالى واتصافهما بالطهارة، وحصول الإحياء بهما:

قال تعالى عن القرآن: ﴿تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ عَلى عَبدِهِ لِيَكونَ لِلعالَمينَ نَذيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقال عن المطر في السورة ذاتها: ﴿وَهُوَ الَّذي أَرسَلَ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ وَأَنزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحيِيَ بِهِ بَلدَةً مَيتًا وَنُسقِيَهُ مِمّا خَلَقنا أَنعامًا وَأَناسِيَّ كَثيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

وجاء الطهر في أوصاف القرآن: ﴿رَسولٌ مِنَ اللَّهِ يَتلو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢].

كذلك اتصافهما بالبركة وهي كثرة النفع والخير، مع اتصافهما بالإحياء، قال الله تعالى عن المطر: ﴿وَنَزَّلنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكًا فَأَنبَتنا بِهِ جَنّاتٍ وَحَبَّ الحَصيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخلَ باسِقاتٍ لَها طَلعٌ نَضيدٌ ﴿١٠﴾ رِزقًا لِلعِبادِ وَأَحيَينا بِهِ بَلدَةً مَيتًا كَذلِكَ الخُروجُ﴾ [ق: ٩-١١].

وقال الله تعالى عن القرآن الكريم: ﴿وَهذا كِتابٌ أَنزَلناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعوهُ وَاتَّقوا لَعَلَّكُم تُرحَمونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال: ﴿أَوَمَن كانَ مَيتًا فَأَحيَيناهُ وَجَعَلنا لَهُ نورًا يَمشي بِهِ فِي النّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيسَ بِخارِجٍ مِنها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلكافِرينَ ما كانوا يَعمَلونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولَك أن تعجب كُلَّ العجب من الالتفاتة القرآنية المباشرة في سورة الحديد بعد دعوة القلوب الميتة إلى الخشوع من ذكر الله، كيف عقب بذكر إحياء الأرض بعد موتها في سياق واحد فقال تعالى: ﴿أَلَم يَأنِ لِلَّذينَ آمَنوا أَن تَخشَعَ قُلوبُهُم لِذِكرِ اللَّهِ وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلا يَكونوا كَالَّذينَ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبلُ فَطالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَقَسَت قُلوبُهُم وَكَثيرٌ مِنهُم فاسِقونَ ﴿١٦﴾ اعلَموا أَنَّ اللَّهَ يُحيِي الأَرضَ بَعدَ مَوتِها قَد بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُم تَعقِلونَ﴾ [الحديد: ١٦-١٧].

قال أبو حيان: «هو تمثيلٌ لتليين القلوب بعد قسوتها، ولتأثير ذكر الله فيها، كما يؤثر الغيث في الأرض فتعود بعد إجدابها مُخصبة، كذلك تعود القلوب النافرة مُقبلة، يظهر فيها أثر الطاعات والخشوع»[2].

> **لَك أن تعجب كُلَّ العجب من الالتفاتة القرآنية المُباشرة في سورة الحديد بعد دعوة القلوب الميتة إلى الخشوع من ذكر الله، كيف عقّب بذكر إحياء الأرض بعد موتها في سياق واحد**

وقال صاحب الظلال: «ولكن.. لا يأسَ من قلب خمدَ وجمدَ وقسا وتبلَّد، فإنه يمكن أن تدبَّ فيه الحياة، وأن يُشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله.. فالله يُحيي الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبت والزهر، وتمنح الأكل والثمار.. كذلك القلوب حين يشاء الله.. وفي هذا القرآن ما يُحيي القلوب كما تحيا الأرض؛ وما يمدُّها بالغذاء والري والدفء...»[3].

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٨٠).
(٢) البحر المحيط في التفسير (١٠/١٠٨).
(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب (٦/٣٤٨٩).

دلالات المطر وأحواله في القرآن الكريم

إرسال الرياح	إرسال الرسل
الغيث	القرآن الكريم
البرق والرعد	براهين القرآن وزواجره
الأرض	القلب
الأودية	العلماء

كذلك من أوجه الشبه بينهما: اتصافهما بكونهما أصلَ الحياة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤمِنونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

وكذلك القرآن الكريم هو أصل حياة الأرواح، ولا حياة للروح بغيره، ولذلك سمَّى الله المعرضين عنه أمواتًا، فقال: ﴿فَإِنَّكَ لا تُسمِعُ المَوتى وَلا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوا مُدبِرينَ ۝ وَما أَنتَ بِهادِ العُميِ عَن ضَلالَتِهِم إِن تُسمِعُ إِلّا مَن يُؤمِنُ بِآياتِنا فَهُم مُسلِمونَ﴾ [الروم: ٥٢-٥٣].

ومن أوجه الشبه بين المطر والقرآن ما يحصل بسببهما من عقوبة..

فالمطر قد يكون عذابًا للمكذبين المعاندين الذين اغتروا بالدنيا حتى أمنوا مكر الله: ﴿فَلَمّا رَأَوهُ عارِضًا مُستَقبِلَ أَودِيَتِهِم قالوا هذا عارِضٌ مُمطِرُنا بَل هُوَ مَا استَعجَلتُم بِهِ ريحٌ فيها عَذابٌ أَليمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

كما أنَّ القرآن يكون وبالًا على المنافقين الذين يجحدونه ولا يؤمنون به؛ فيكون بذلك سببًا في زيادة كفرهم، وعذابهم في الآخرة: ﴿وَإِذا ما أُنزِلَت سورَةٌ فَمِنهُم مَن يَقولُ أَيُّكُم زادَتهُ هذِهِ إيمانًا فَأَمَّا الَّذينَ آمَنوا فَزادَتهُم إيمانًا وَهُم يَستَبشِرونَ ۝ وَأَمَّا الَّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ فَزادَتهُم رِجسًا إِلى رِجسِهِم وَماتوا وَهُم كافِرونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥].

والمطر يُخرج ثمرات متفاوتة متنوعة مع أنَّ الماء واحد؛ قال تعالى: ﴿وَفِي الأَرضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنّاتٌ مِن أَعنابٍ وَزَرعٌ وَنَخيلٌ صِنوانٌ وَغَيرُ صِنوانٍ يُسقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعضَها عَلى بَعضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ﴾ [الرعد: ٤].

والقرآن كذلك يرِدُ على الناس ثمَّ يَصدُرون عنه مُتفاوتين في الإيمان والعلم والعمل مع أن الكتاب واحد، وجاءت الإشارة إلى هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿أَلَم تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخرَجنا بِهِ ثَمَراتٍ مُختَلِفًا أَلوانُها وَمِنَ الجِبالِ جُدَدٌ بيضٌ وَحُمرٌ مُختَلِفٌ أَلوانُها وَغَرابيبُ سودٌ ۝ وَمِنَ النّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنعامِ مُختَلِفٌ أَلوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخشَى اللَّهَ مِن عِبادِهِ العُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزيزٌ غَفورٌ ۝ إِنَّ الَّذينَ يَتلونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقوا مِمّا رَزَقناهُم سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرجونَ تِجارَةً لَن تَبورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُم أُجورَهُم وَيَزيدَهُم مِن فَضلِهِ إِنَّهُ غَفورٌ شَكورٌ ۝ وَالَّذي أَوحَينا إِلَيكَ مِنَ الكِتابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبيرٌ بَصيرٌ ۝ ثُمَّ أَورَثنَا الكِتابَ الَّذينَ اصطَفَينا مِن عِبادِنا فَمِنهُم ظالِمٌ لِنَفسِهِ وَمِنهُم مُقتَصِدٌ وَمِنهُم سابِقٌ بِالخَيراتِ بِإِذنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الفَضلُ الكَبيرُ﴾ [فاطر: ٢٧-٣٢].

ومن أوجه التشابه بينهما كذلك وجودُ بعض الموانع التي تحول دون الانتفاع بهما، فالماء قد تمنعه عوائق كثيرة من الوصول إلى بعض الأراضي، كالأوساخ، وانحراف المجرى، فلا تنتفع به كما هو مشاهد معلوم.

وكذلك القرآن الكريم قد تحول بعض الموانع دون الانتفاع به، كفساد القلب، وسوء النية، ونحوها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلنا مِن بَينِ أَيديهِم سَدًّا وَمِن خَلفِهِم سَدًّا فَأَغشَيناهُم فَهُم لا يُبصِرونَ ۝ وَسَواءٌ عَلَيهِم أَأَنذَرتَهُم أَم لَم تُنذِرهُم لا يُؤمِنونَ ۝ إِنَّما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكرَ وَخَشِيَ الرَّحمنَ بِالغَيبِ فَبَشِّرهُ بِمَغفِرَةٍ وَأَجرٍ كَريمٍ﴾ [يس: ٩-١١].

تأمَّل عظيم نعمة الله على عباده في الماء وكيف جعل منه حياة كل شيء والتي لا تخفى على أحدٍ

أبدًا ﴿وَجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤمِنونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وكيف تتعلق القلوب بالماء الذي به حياة الأبدان، وتقدِّر الكائنات كلها الماء قدره!

في المقابل تأمَّل كيف تاهت البشرية وضلتْ وغرقت في ظلمات الجهل وقست القلوب حينما لم تهتدِ بهدي الوحي ولم تستضئ بنوره ولم ترتوِ من معينه، وفيه خلاصها وسعادتها ونجاتها.

الأرض الطيبة والأرض الخبيثة:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلنا بِهِ الماءَ فَأَخرَجنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخرِجُ المَوتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ ۝٥٧ وَالبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخرُجُ نَباتُهُ بِإِذنِ رَبِّهِ وَالَّذي خَبُثَ لا يَخرُجُ إِلّا نَكِدًا كَذلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ لِقَومٍ يَشكُرونَ﴾ [الأعراف: ٥٧-٥٨]

قال ابن القيم في عبارات موجزة جميلة تعبِّر عما نروم لفت النظر إليه من سياق هاتين الآيتين: «أخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأنَّ أحدَهما مُعتبر بالآخر مقيسٌ عليه، ثم ذكر قياسًا آخر أنَّ من الأرض ما يكون أرضًا طيبة فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت نباتها بإذن ربها، ومنها ما تكون أرضًا خبيثة لا تخرج نباتها إلا نكدًا -أي قليلا غير منتَفَع به- فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تُخرج ما أخرجت الأرض الطيبة، فشبَّه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض بحصول الحياة بهذا وهذا، وشبَّه القلوب بالأرض إذ هي محل الأعمال كما أن الأرض محل النبات، وأن القلبَ الذي لا ينتفع بالوحي ولا يزكو عليه ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر ولا تخرج نباتها به إلا قليلًا لا ينفع، وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه وعمل بما فيه كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله وتدبره بان أثره عليه فشُبه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب ويحسن أثر المطر عليه فينبت من كل زوج كريم والمعرض عن الوحي عكسه والله الموفق»(١).

ورد في هذا المعنى قوله ﷺ: (مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ)(٢).

الأودية:

وختام تلك المشاهد: تلك المياه التي تسيل في الأودية التي تحملها إلى أماكن بعيدة نائية لم تشهد المطر ولا السحاب فتلك الأودية مثلها مثل العلماء وحملة العلم ينقلون الوحي في الناس فينشرون الهدى والنور وينفع الله بهم عباده(٣)، ومِن الناس مَن يحملُ العِلم إلى غيرِه دون أنْ ينتفع به، وربَّ حاملِ فقهٍ ليسَ بفقيه، عن جبيرِ بن مطعم قال: قامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالخيفِ من منًى، فقالَ: (نضَّرَ اللَّهُ امرًا سمِعَ مقالتي، فبلَّغَها، فربَّ حاملِ فقهٍ، غيرُ فَقيهٍ، وربَّ حاملِ فِقهٍ إلى من هوَ أفقَهُ منهُ) (٤).

وختامًا:

إنَّ الدنيا حينما تتزيَّن للناس وتُظهرُ مباهجها ومفاتنها فإن أهل الغفلة ينخدعون بها، وتغرُّهم زينتُها، ويركنون إليها حتى تَشغلهم عن آخرتهم ومصيرهم، بينما يقف أهل الإيمان متأملين فيها ثابتين على مبادئهم لا تغرهم الفتن، ولا تهزهم زخارف الدنيا، بل هم على الضد من ذلك، يجعلون من هذه الزخارفِ والمفاتنِ عوامل تثبيت وهداية وإشارات هدى وإيمان، تذكِّرهم المصير الأخير، وترغبهم في نعيم الجنة المقيم، فالمشاهد واحدة، والصور هي هي! لكنها فتنةٌ للغافلين الجاهلين، وتثبيتٌ وهدًى للمتقين المؤمنين.

هذه أمثلةٌ عملية للتفكُّر في الكون من حولنا وما حواه، لننظر إلى كل مشاهد وملموس حولنا بنظرة مختلفة، لنوجد بيننا وبين الكون روحًا تفاعلية، ونسمو بمشاعرنا وأحاسيسنا فلا تنتهي عند الحدود المادية الأرضية.. بل تتجاوزها لنعبر بها إلى معانٍ أخروية سامية، معاني الوحي والهداية والنور.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٠٨).
(٢) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).
(٣) وقد تقدمت الإشارة إليه عن الحديث عن أنواع الأراضي التي ينزل عليها الماء.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٣٠).



دعوة

حركة الجماهير

أ. وليد الرفاعي(*)

تلعب الجماهير دورًا محوريًا في أي تغيير سياسي أو حراك اجتماعي، لذا فقد ظلت دراسة حركة الجماهير محل اهتمام واسع وكبير من اللاعبين والفاعلين على شتى المستويات ..

وسيظل الفهم العميق لسيكولوجية الجماهير وكيفية تحركها والتعاطي مع هذا الفهم من خلال الأطر المختلفة مفتاحاً لتوجيه أرشد واستثمار أمثل لحركة الجماهير وسبل مخاطبتها وتوجيهها؛ وفي الوقت نفسه: حفظ للكثير من الجهود من الهدر والضياع.

تمهيد:

في عالم يتزاحم فيه أصحاب المشروعات والرؤى المختلفة لكسب الجماهير والتأثير عليهم؛ وتتفنَّن الدول ومراكز التأثير العالمية المدعومة بالقدرات الإعلامية والتقنية المتخصصة في قراءة مزاج الجماهير العام -بل وحتى المزاج الفردي كذلك!- وُتبدع في التوجيه للهدف المطلوب في مهارةٍ بالغةٍ ومكرٍ كبير قد لا ينجو منه حتى بعضُ من يظنُّ نفسهُ في حصانةٍ منهم!! في ظل ذلك تُلحُّ الحاجة لرواد التغيير والإصلاح إلى قراءة سلوك الجمهور.. قراءةً تستحضر طبائع الشعوب مع استصحاب سنن التغيير الكونية والشرعية.

١. الجماهير والتأثير:

الجماهير ليست دائمًا في موقع المفعول به؛ أو التابع كما قد يظهر؛ بل إنَّ المزاج العام «للجماهير» يضغط على النخب في مختلف تخصصاتهم الشرعية والاقتصادية والسياسية...؛ فيضطرُّهم لوجهات واهتمامات -وربما لمواقف- تتناسب مع هذا المزاج إيجابًا أو سلبًا؛ فهم يمثلون دورًا مشتركًا بين المؤثِّر والمتأثر؛ ممّا يعني أنَّهم شركاء حتى في توجيه الدفة بشكل غير مباشر!

وإذا كانت النخب والساسة هم قادة التغيير، فإنَّ الجماهير هُم أداتُه التي لا يتم إلا بها .. وأي

(*) مستشار تربوي ونفسي.

> لا مناص لأي مشروع إصلاحي يسعى للتغيير والتأثير الشامل من أن يرفع اهتمامه بالجماهير؛ بدءًا من فهم طبيعتهم، وإدراك همومهم؛ وانتهاء بتجويد خطابه الموجّه لهم بشكل عام

تأثير على مستوى النخب الفكرية أو القيادات المجتمعية؛ لا يُصاحبه تأثير شعبي وجماهيري واسع سيصيب مشروع التغيير بالعجز والشلل؛ ويحوله إلى حركة فلسفية؛ تُقدِّم في أحسن حالاتها إرثًا نظريًا، ومخزونًا معرفيًا فحسب.

فلا مناص إذًا لأي مشروع إصلاحي يسعى للتغيير والتأثير الشامل من أن يرفع اهتمامه بالجماهير؛ بدءًا من فهم طبيعتهم، وإدراك همومهم؛ وانتهاء بتجويد خطابه الدعوي الموجّه لهم بشكل عام.

٢. قيادة الجمهور:

الناس مشارب شتى؛ تتباين اهتماماتهم وثقافاتهم ومستوياتهم، إلا أنَّه عندما يُحسَنُ ضبط بوصلتهم ينصهروا ليكونوا أشبهَ بالشخص الواحد؛ فالناس بعضهم تبعٌ لبعض؛ القائدُ فيهم قليل، والمحِّص الواعي أقل، وإنما هم «كإبلٍ مائة» ينقادُ مجموعهم لآحادهم؛ ومن اللافت أنَّ الوعي الشخصي للفرد يضعُف كلما انخرط في كيان أكبر منه! وكأنَّه يتخفف من إعمال عقله تسليمًا لعقول الآخرين أو تأثرًا بالهالة التي يفرضها التوافق الجماعي على أمرٍ ما.

وكلما زادت قاعدة الجماهير اتساعًا زادت سطوتها على الفرد وعقله؛ فتصبح الكثرة العددية بمفردها مؤشرًا على صحة ما تجتمع عليه؛ مهما بَدَت أدبيّاتُها ضعيفة أمام المحاكمة العقلية الصحيحة! وهي شُبهة تقع بسبب افتراض استحالة اجتماع هذه العقول على الخطأ؛ بينما لا تستحضر تبعية الناس بعضها لبعض؛ فمائة شخص ليسوا مائة عقل بالضرورة؛ وإنما قد يكونون عقلاً واحدًا ومائة تابع![1]

وفي حركة الجماهير غالبًا ما تكون التبعية لأصحاب المَلَكات القيادية المُبادِرة على حِساب أصحاب القُدرات الفكرية الحَذِرة؛ وهذا ما يجعل الحراك الجماعي في كثيرٍ من حالاته منخفض الوعي والتمييز.

ومن الظواهر الاجتماعية الملفتة أن سلوك الفرد في إطار جماعة يختلف عن سلوكه بعيدًا عنها؛ فالتيار «الجمعي» يضغط باتجاه الروح العامة له؛ حتى يفرز ما يمكن أن نسميه مجازًا « سلوك أو أخلاق الجمهور» مما يعني أنَّ التنبؤ بسلوك الناس الجماعي قد لا يكونُ متناسقًا مع سلوكهم الفردي؛ وإنَّما مع مسار الجماهير وما توجِّهه له!

وفي المقابل لا تَسْلَم حتى النُّخب أيضًا من تأثير تلك السطوة لـــ «سلوك الجمهور» حيث يمتدُّ أثره عليها لتنصهر في سلوك ربَّما يكون غير متناسب مع مستواها الفكري والأخلاقي!!

وغالبًا ما يكون «سلوك الجمهور» أسوأ من «سلوك الفرد» كلما ضعفت الرقابة الخارجية والسلطة الضابطة له؛ فالمبادئ ظاهرة الأثر على التحكم بسلوك الأفراد ولكن سلوك الجماعات لا بدَّ للتحكم فيه من بروز دور السلطة؛ وربَّما هذا ما يفسر التشديد التشريعي في ضبط الأدوار الجماعية من مستوياتها العليا المتمثلة في الإمامة العظمى وحقوق ولي الأمر، وصولًا إلى التوجيه للتأمير في السفر في حق الثلاثة فأكثر.. ومرورًا بما بينهما من ضبط عبادات الناس الجماعية كإمامة الصلاة مثلًا. وهو ما يجعل المجتمع المسلم محاطًا بجملة من التشريعات التي ترفع مستوى «الضبط» فيما قد يفسِّره خصومه بأنَّه حالة من حالات «الكبت» له!. غافلين عن أنَّ الكبت هو الحيلولة دون ظهور السلوك غير المرغوب فيه بالمنع أو القهر؛ دون معالجة دوافع ذلك السلوك في النفس مما يبقي التطلع له قائمًا؛ أو يؤدي إلى خفاءه علنا وظهوره سرًا.. أمَّا الضبط فيهتم بتعزيز القناعة بترك ذلك السلوك في النفس؛ مع تضييق فرص الوقوع فيه في الواقع.

فالكبت هو التعامل مع ظاهر السلوكيات، بينما يتعامل الضبط مع جذورها ودوافعها.

٣. بين المبادئ والمصالح:

تتفاعل الجماهير غالبًا مع دعوات المبادئ والأخلاق والتدين؛ إلا إذا مَسّت تلك الدعوات مصالحها المباشرة! فإنَّها تنحاز غالبًا لمصلحتها

(١) كالأمثال الشعبية والعادات والأعراف والعادات التي يتلقّاها الناس بتسليم عالٍ وتمييز منخفض مهما بدت شاذّة أو خاطئة.

في حركة الجماهير غالبًا ما تكون التبعية لأصحاب المَلَكات القيادية المُبادِرة على حِساب أصحاب القُدرات الفكرية الحَذِرة، ولذلك يحسن التنبه من الوقوع في فخ المبالغة في الحسابات المؤخرة للعمل

الشخصية أو الجماعية على حساب القيم والمبادئ!، وتتباين الجماهير في ذلك ولا شك؛ فكلما زاد «النبل الجمعي» «والانتماء الديني» خرجت الجماهير من أسر «المصلحة الآنية الذاتية» إلى «المصلحة الاستراتيجية الجماعية» فارتفاع الروح الجماعية هي أحد مؤشرات الوعي لدى الشعوب.

وكثيرًا ما يتم خلط المبادئ بالمصالح لتسويغ تبني الناس لها؛ أيًا كانت وجهة هذه المبادئ؛ فالعلاقة بين الدين والمصلحة المادية قد تستغل لسهولة جعل الدين جسرًا لتحقيق المصالح من خلاله؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٤].

ولذلك غالبًا ما تكون صدمة الجماهير بعد انجلاء هذا الاستغلال لهم باسم الدين كبيرة؛ تفقدهم توازنهم وتؤدي بهم إلى نبذ كل ما هو ديني ومقدس، أو التشكيك به، أو حصره في زوايا ضيقة بعيدا عن الحياة في أحسن الأحوال؛ وهو بالضبط ما حصل من جماهير الأوروبيين مع الكنيسة في القرون الوسطى.

وربما فسر هذا شيء من تشديد الشريعة على تخليص الدين وعلمائه من أي شائبة أو مصلحة دنيوية؛ قال عليه الصلاة والسلام (مَنْ تعلَّمَ العلْمَ ليُباهِيَ بِهِ العلماءَ، أوْ يُمارِيَ بِهِ السفهاءَ، أوْ يصرِفَ بِهِ وجوهَ الناسِ إليه، أدخَلَهُ اللهُ جهنَّمَ)[١].

بل إنَّ جعل أوّل من تُسعَّر بهم جهنم يوم القيامة هم: القارئ والمجاهد والعالم والمتصدق كما في الحديث الصحيح[٢] هو أمر يستحق التأمل! ذلك أن هؤلاء يمثلون الصورة النهائية المثلى «لأهل الدين»! ولكنه فساد النية المفضي إلى تحقيق المصالح الذاتية من خلال هذا المقام السامي!!.

ولقد سبق فرعون إلى اللعب على وتر الدين في كسب ولاء الجمهور عندما علّل معاداته لكليم الله موسى عليه السلام بقوله: (إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)!

وبعيدًا عن الاستغلال السيء للدين والمبادئ؛ فإن القيادة الدعوية التي تتكئ على بذل الناس وتضحيتهم في سبيل تحقيق المصالح الدعوية المشروعة؛ مقابل المساس بذواتهم أو مصالحهم الدنيوية المباشرة؛ تراهن مراهنة شبه خاسرة عند الأغلب من الجماهير وبالرغم من أنَّ الشريعة كلَّها مصلحة، إلا أنَّ الناس تتفاوت في إدراك ذلك؛ كما إنَّ المصالح الشرعية تُراعي مع مصالح الدنيا مصالحَ الدين ومعادَ العباد في الآخرة من جهة، وتُوازن بين مصلحة مجموع الناس ومصلحة أفرادهم من جهة أخرى؛ بينما ينحاز غالب الناس إلى مصالحهم الدنيوية المباشرة؛ على حساب المصالح الأخروية والجماعية؛ فيتمحورون حول آحادهم على حساب الكل؛ ففي أجواء ضعف التدين الغالبة تدور الناس حول ذواتها غالبًا؛ وليس من صالح الدعوات التعويل على تضحيات الجمهور لمجرّد أنَّها تملك الحق ما لم تربهم عليه، فبعمق التربية تتمايز الدعوات.

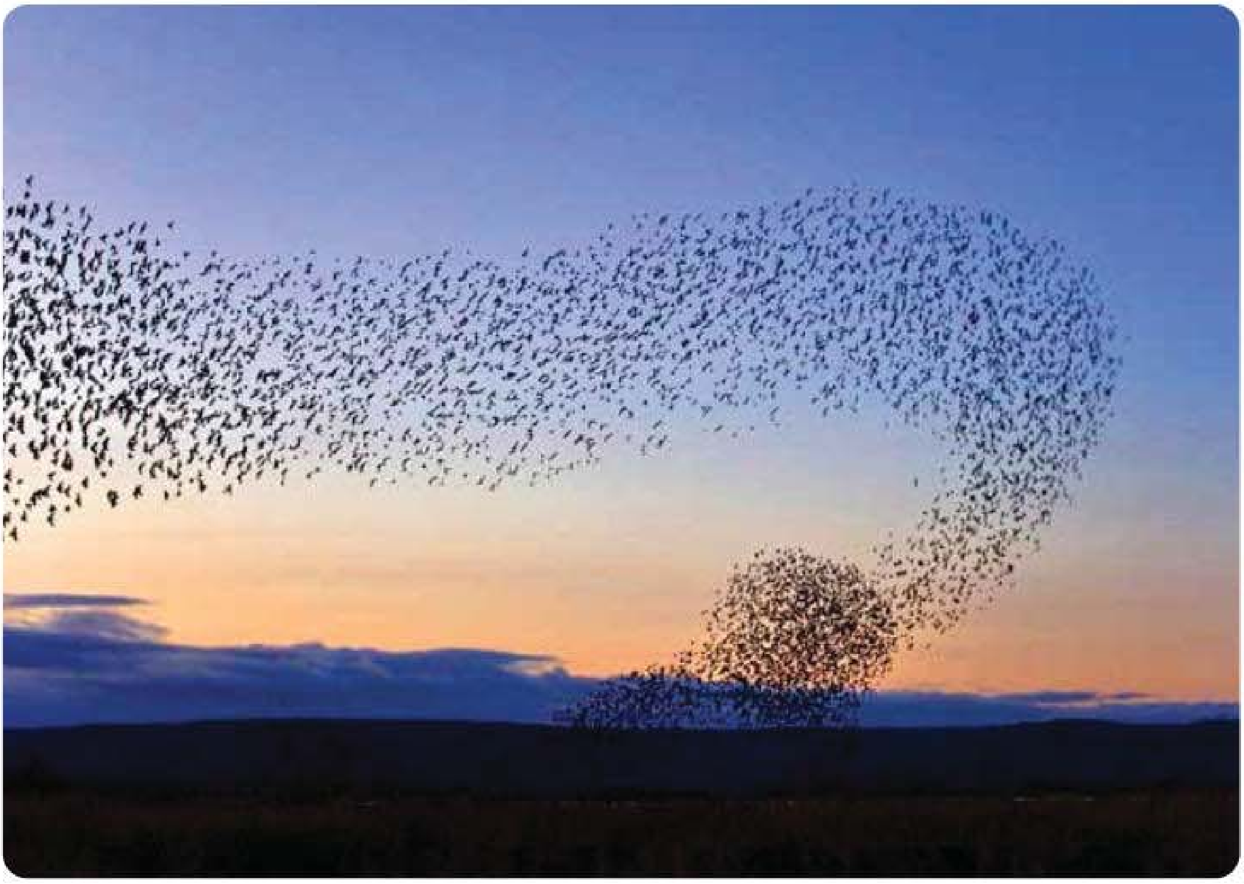
كلما زاد النبل الجمعي والانتماء الديني خرجت الجماهير من أسر المصلحة الآنية الذاتية إلى المصلحة الاستراتيجية الجماعية فارتفاع الروح الجماعية هي إحدى مؤشرات الوعي لدى الشعوب

٤. روح الجماهير:

روح الجماهير وإنْ بدت هادرة قوية إلا أنَّها ملولة لا تُطيق المشاريع الطويلة؛ فتستعجل غالبًا اقتطاف الثمار؛ والتعويل عليها في مشاريع التغيير إنَّما يكون في تحقيق قفزات ونقلات آنية لقضايا كلية كبرى، لا في مشاريع استراتيجية عميقة وطويلة المدى؛ فذلك شأنُ النخب؛ وغالبًا ما تخدع روح الجماهير القوية والقصيرة الجماهير نفسها؛ فتستشرف لما هو فوق طاقتها؛ وقد يعول رواد

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وأحمد (٨٤٥٧) بمعناه، وابن ماجه (٢٦٠) واللفظ له.

(٢) الحديث بطوله في صحيح مسلم عن أبي هريرة (١٩٠٥)، وورد بألفاظ متقاربة في جامع الترمذي وصحيحي ابن حبان وابن خزيمة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



الإصلاح عليها من آمال التغيير ما تعجز طاقة الجماهير عن دعمها و التماهي معها طويلًا.. ولعل في قصة بني اسرائيل مع نبي لهم شاهدًا على ذلك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[١] [البقرة: ٢٤٦].

وكما أنَّ الشيطان يكمن في التفاصيل؛ فإنَّ النزول بالجماهير عن المشتركات الكبرى لها إلى القضايا التفصيلية يؤدي بها إلى التشرذم والافتراق. فلا يُفرِّق حراكًا مجتمعيًا ضخمًا أمرٌ مثلَ محاولةِ جمعِ أصحابه على رؤيةٍ مستقبلية مفصلة أو مواد تفصيلية للدستور، وإنَّما يكون جمعُ الناس على الحقائق الكلية التي تكون أشبه بالمنارات الظاهرة للجميع، وعبر التأكيد عليها من خلال التكرار بصُورٍ مُتباينة، ومن ثمَّ يَتبعُ الناسُ بعضُهم بعضًا في عدوى ظاهرةٍ وتقليدٍ واعٍ وربما غير واعٍ أيضًا

ونظرة سريعة في أنموذج الخطاب الشيعي -كمثال على الخطاب الجماهيري الذي نجحَ في تحشيدِ جمهورٍ واسعٍ من مريديه وأتباعه رغم هشاشةِ محتواهُ ومضمُونه- يُلحظ هذا التركيز على قضايا كلية قليلة ومُحدَّدة يجتمع عليها الصغيرِ والكبير، مع التأكيدِ والتكرارِ الحادِّ عليها في كلِّ مناسبةٍ لتكون أشبهَ بالسِّمَة الظاهرة والشعارِ البارز لأصحابها؛ ومن ثمَّ سريان العدوى في تبنيَ مضامين هذا الخطاب ومواقفه بصورة شبه عمياء لدى السواد الأعظم من جمهوره!!

> **النزول بالجماهير عن المشتركات الكبرى إلى القضايا التفصيلية يؤدي بها إلى التشرذم والافتراق**

وقد كان عليه الصلاة والسلام يجمعُ الناس على الكلِّيات ويرتفع بالصحابة عن كثيرٍ مما يحتمل أن يكون سببًا لتفرقهم رغم وضوحِ الحق فيه؛ ففي موقفه من عبد الله بن أبيّ وطعنه بالنبي ﷺ والصحابة في موقفي الإفك وغزوة بني المصطلق اختار المصطفى ﷺ أن يتجاوز الحَدَث لما بعده؛

(١) يراجع بتوسع (في ظلال القرآن) لسيد قطب عند الآية ٢٤٦ من سورة البقرة.

على أنْ يُناقشه مع صحابته ويقرِّر الحقَّ فيه؛ وذلك لما في الأخذِ والردِّ فيه من مظنّة النزول لقضايا غير متَّفق عليها بين الصحابة أو لم يكتمل البناء التربوي لبعضهم فيها بعد؛ فتكون سببًا في إحياء النزعة العصبية والخروج بالأمور عن الضبط العام.

> **المتمثل بدعوته الفاسدة المضحي لأجلها أكثر تأثيراً في عموم الجماهير من صاحب الدعوة النبيلة المتراخي في تبنيها**

وقد يفسرُ هذا شيئًا من تأخرِ الكثير من تفصيلات الشريعة إلى مراحلَ متأخِّرةٍ من حركة الأمّة في مجتمع الصحابة رضي الله عنهم؛ حيث ركّزت الشريعة على بناء التصوُّر العقدي للأمّة في الكليات الكُبرى والذي انعكس إلى جمع الأمة في روح واحدةٍ تتقلّص معها فُرص الاختلاف أو التباين؛ على عكس الكثير من تفصيلات الشريعة التي يتباين واقعُ الناس وطاقتُهم وتربيتُهم للانصياع والامتثال لها.

٥. عاطفة الجماهير:

ذاكرة الجماهير قصيرة؛ تلتصق بآخر مؤثِّر؛ وهذه سمة من سمات التفكير الجمعي؛ وهي بالمقابل متطلِّبة تُكثر الشكاة، وسريعة التقلب في ولائها وتبعيتها؛ وهذا سِرٌّ من أسرار تمرُّدها وتقلُّبها كذلك؛ فالجماهير تحتاجُ دومًا أن تشحن ذاكرتها بالجديد المعزز لكسبها؛ سواء أكان هذا الجديدُ مصالح شخصية أو منجزات واقعية، وقد تكون منجزات وهمية يصنعها إعلامٌ خادع!

تلعب العاطفة دورًا محوريًا في التأثير على مزاج الجمهور؛ وغالبًا ما يكون أثرُها أبلغ من تأثيرِ المنطق والعقل؛ وهذا ما يجعلُ من استدعاء المؤثِّرات العاطفية لُعبة المستبدِّين دومًا في خداع شعوبهم.

وإذا استحضرنا الخيارات المفتوحة في استخدام الوسائل الخسيسة في التعامل مع الجماهير عند أصحاب المشاريع السيئة؛ نظرًا لانعدام الخطوط الحمراء لديهم، والخيارات المحدودة بالمقابل عند أصحاب المشاريع النبيلة؛ نظرا للانضباط الديني والأخلاقي، فإنّ هذا يعني أنَّ أدوات استثمار الجماهير لدى الطرف الأول أعلى وأقوى.. إلا أنَّ عاملًا من عوامل التأثير البالغ في الجماهير قد يُعدِّل الكفة قليلًا لصالح أصحاب المشروعات النبيلة؛ وهو تأثُّر الجماهير بالنموذج والقدوة، ويبقى أنَّ القدوة هنا قضيةٌ نسبيةٌ تشمل كلَّ من تمثّل ما يدعو الناس إليه؛ فَفَعل ما يقول، وضحى في سبيل ما يعتقد حقًا كان أم باطلًا.

إلا أنَّ التحدي الحقيقي الذي تفرضُه الجماهير هو الاستعداد للتنكُّر الذي تحملُه للقُدوات والرموز؛ ذلك أنَّ المناخ الجماهيري غالبًا ما يكون ملائمًا لاستنبات الشائعات؛ والقدرةُ على ضبطِ الألسُن فيه ضعيفةٌ ومحدودة، ومع وجود الكيد الإعلامي الضخم تُصبح المَهمَّةُ أكثرَ سهولة فيُشيطَن الرُّوادُ والشرَفاء ومشاريع الإصلاح بكلِّ سُهولةٍ لوُجود القابليةِ النفسية لتقبُّل ذلك؛ وهذا ما يُساعدنا في فهم الكيفية التي شُوِّهت بها رموزٌ تاريخية بكلماتٍ طائشة التُقطت بالألسُن لا بالآذان.

٦. ولاء الجمهور:

تعشق الجماهيرُ الرموز، وتخضعُ للأقوياء، وتنساقُ للمُبادر؛ وهذا يعني أن اصطفاف الجماهير أو انصياعهم لا يرتبط بالضرورة بصاحب المبدأ.. وإنّما بصاحِب الكاريزما والنفوذ والقوة، وهو انصياعٌ فطري من حيث الأصل، ولكن قد تفسُد بعض الفطر فتنصاعُ للأقوى الذي يُمارس قوَّته وسطوته وظُلمه عليها! وهو تشويهٌ نفسيٌّ عميق ينمو لدى الشعوب التي يطولُ استعبادها؛ فتتحوّل إلى حالة شبيهة بـ «المازوخية» والتي يستمتع معها صاحبها بالعنف تجاهه بل ويستدعيه ويطلبه؛ وهو ما يُفسِّر تأبّي بعض الجماهير عن الاستجابة لدعوات التحرُّر والكرامة فتصطفُّ مع جلّادها ومُستعبدها! حيث يصعبُ عليها تفهُّم خطاب العزّة بعيدًا عمّن ألفت التذلل له!! وغالبًا ما يذهب الأحرارُ ضحايا استنقاذ حياة وكرامة الجماهير على يد الجماهير نفسها! حالُهم كحالِ أنبياء بني إسرائيل الذين قُتل كثيرٌ منهم على يد أقوامهم الذين جاؤوا لاستنقاذهم.

وهذه النفوس المريضة والتي عاشت في أكناف الذلّ واستحسنته أوجدت ردّة فعل سلبية عند بعض روّاد التغيير والإصلاح، جعل بعضهم يقتنع بأنّه «لو أمطرت السماء حرية.. لرأيت بعض

متطلبات العلاقة الفاعلة مع الجماهير



العبيد يحملون المظلات»[١]، وأنَّ «الثائر لأجل مجتمع جاهل هو شخصٌ أضرم النيران بجسده كي يُضيء الطريق لشخص ضرير!!»[٢] وهي معانٍ ينبغي أن تكون دافعة في اتجاه الجِدِّ في رفع الجهلَ عن الناس، وبثِّ الوعي فيهم ليتهيَّؤوا للعيش مع المعاني السامية؛ لا أن تكون دافعة نحو ترك هذه الجماهير غنيمةً باردةً لمن يستخدمُها لصالحه، فيجعلها عدوَّة نفسها!

٧. أخلاق الجمهور:

الجماهير خيِّرة فوق ما يظنه البعض! كما أنَّها شريرة أيضًا فوق ما يظنُّه البعض الآخر!! إنَّها في الحقيقية طيِّعة بيد من يُحسن فهمها وكسبها واستثمارها؛ وهي عندئذٍ تتماهى معه لأقصى صورِ الخير أو الشر؛ فتبدو ملائكية أحيانًا؛ وشيطانية في أحيان أخرى! وهنا تكمن المفارقة حيث الاستعداد العالي للوصول لأقصى صور الفجور أو التقوى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا۝فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧-٩]، ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم۝ ثم رددناه أسفل سافلين﴾ [التين: ٤-٥][٣] إلا أنَّ اللافت جدًا ما أشارت إليه الفيلسوفة الألمانية (حنًا آرندت) مما أطلقت عليه مصطلح (تفاهة الشر) انتهت فيه إلى أن الناس قد تفعل أسوأ الشرور بدوافعَ تافهةٍ وليست عميقة في النفس![٤] ممّا يعني أنَّ قابلية الجمهور للتوظيف السيء عالية حتى لو كان نظير عوض منخفض، ومن هنا برزت ظاهرة الخيانة «بتوصيفاتها العصرية المختلفة» كحالةٍ يتم الاستعانةُ بها في إجهاض المشاريع الإصلاحية، عبر أناس يتمُّ استخدامُهم لتحقيق أدوارٍ سيِّئة رغم أنهم ليسوا بالضرورة أناسًا سيئين من حيث الأصل[٥].

فالدوافع الباعثة على فعل السلوك السيئ متعددة؛ فقد تكون في غاية السوء أحيانًا؛ مما يعكس رقة دين صاحبها؛ وقد تكون في غاية التفاهة أحيانًا أخرى مما يدل على سذاجة أو ضعف عقل صاحبها.

---

(١) تنسب إلى أفلاطون.
(٢) تنسب إلى محمد رشيد رضا رحمه الله.
(٣) للشيخ بسام جرار حديث مفيد حول هذا الموضوع في محاضرة بعنوان (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) على منصة يوتيوب.
(٤) ينظر كتاب (إيخمان في القدس: تقرير حول تفاهة الشرّ)، لكاتبته حنا أرندت.
(٥) كالشبيحة أو البلطجية أو المرتزقة، وهم كل أجير لعملٍ شائن مقابل مصالح مادية أو معنوية.

يظهر التمايُز بين الشعوب عندما تُلبّى حاجاتُها الرئيسة، وهنا يبرُز دَور الوعي الحضاري والثقافي والأخلاقي ليكون عاملًا مؤثرًا في السلوك الجمعي

كما قد تكون بسبب سوء التقدير لتبعات السلوك والذهول عن آثاره الكبيرة نظرًا للإغراق في مؤثرٍ ما.. يُسيطر على واقع الشخص ممّا يدلّ على سيطرة الأوضاع الخاصة على سلوك الكثير من الناس، تمامًا كما وقع من حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في سلوك «أشبه ما يكون بالخيانة العظمى» عندما كاد أن يفشي أسرارًا عسكرية بإرسال رسالة للمشركين (يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَعجل عليَّ، إني كنتُ امرًا مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ -أي حَلِيفًا- وَلَمْ أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المُهاجرين مَن لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببتُ إذا فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عندهم يدًا يحمون قَرَابَتِي، وَلَمْ أَفْعَلْهُ ارْتِدَادًا عَنْ دِينِي، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)[١].

فتصنيف الفعل: خيانة، والجزاء المستحق: القتل، وأما الفاعل: فصحابيٌّ جليلٌ سبق فضلُه من أهل بدر، بدأت القصة مُتهماً بالخيانة وانتهت وهو مشهود له بالتزكية العظيمة من الله، أمّا تصنيف الدافع وهو شاهدنا هنا: فهو الرحمة والشفقة على أهل بيته لا المكر والخيانة بالمسلمين.

علامة فارقة:

يظهر التمايُز بين فردٍ وآخر وبين شعبٍ وثانٍ.. عندما تُلبّى الحاجاتُ الرئيسة لهذه الشعوب، وهُنا يبرُز دَور الوعي الحضاري والثقافي والأخلاقي ليكون عاملًا مؤثرًا في السلوك الجمعي، أمّا عندما يمسُّ الناسُ في احتياجاتهم الأساسية الأولية؛ فإنَّ سُلوكهم يتقاربُ إلى حدِّ التطابُق على اختلاف مشاربهم الحضارية ومستوياتهم الثقافية؛ وعندما تتوحَّدُ الاحتياجات وتندُر في نفس الوقت يشتدُّ التنافس وتعظُم الأنا، وأعظم الاحتياجات إلحاحًا على الإنسان هي احتياجاته الأولية الفسيولوجية والتي يتقارب السلوك الجمعي في سبيل تحقيقها إذا ما شعر فيها بالندرة حتى بين الفئات المتباينة في ثقافتها أو مبادئها؛ وفي المجتمعات النبيلة يكون الفقر عاملًا لظهور السلوكيات الحسنة عند الناس؛ كالإيثار والتعفُّف والكرم والصبر وغيرها، إلا أن ارتفاع حدّة الفقر والحاجة إلى مستوياتها العليا يُغيِّب كثيرًا من هذه المحاسن، فتطغى حالة من «التوحُّش» و«اللاإنسانية» لتكون الأعلى صوتًا في سلوك الإنسان! وكما أنَّ الضربة التي لا تكسر ظهرك تقوّيه؛ فإنَّ الضربة التي لا تقوّي ظهرك قد تكسره! وربما فسر ذلك جزءًا من علوِّ كعب الزكاة في الشريعة؛ واقترانها الكبير بالصلاة في كتاب الله؛ وصلابة النظام التكافلي الإسلامي الذي ضاعف من أسباب تقليل مساحة الحاجة والعَوَز قدر الإمكان.

وأخيرًا ..

تبقى جوانب فهم حركة الجماهير وتعاطيهم مع حركات الإصلاح والتغيير مجالًا بالغ الأهمية للغوص في أعماقه وإدراك أسراره؛ ففيه اختصارٌ الطريق؛ وحفظ للطاقات والجهود؛ كما إنها ترفع من مستوى الأداء لتحقيق أفضل النتائج؛ مما يخدم المقاصد الكلية للدين ويحقق المصالح الكبرى للناس. وما نحتاجه اليوم هو مزيج بين رؤية اجتماعية نفسية[٢] وبين استقراء سنني شرعي؛ مع استحضار لأرقى أنموذج في الإصلاح والتغيير وهو النموذج النبوي الفريد.

وصلى الله وسلم على سيدنا وقدوتنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٤).

(٢) صدرت عدة مؤلفات في فهم السلوك الجمعي أو ما يمكن تسميته بعلم نفس الجماهير؛ وقد يكون الفرنسي غوستاف لوبون من أشهر من كتب في ذلك؛ حيث قدَّم العديد من المؤلفات التي اهتمت بدراسة الحضارات بشكل عام؛ ككتاب «حضارة الهند»، و«حضارة العرب» وغيرها، وقد توّج كتبه بكتاب (الجماهير: دراسة في العقل الجمعي)، وهو آخر ما كتبه رغم اشتهاره بكتابه الآخر «سيكولوجية الجماهير» (١٩٩١م) والذي أثار جدلًا انتُقِد به الكتاب لاحقًا في تفسيره للعديد من الظواهر في سلوك الجماهير.



نظرات نقدية

مقولة: «السنة ليست كلها تشريعًا» في الميزان

أ.عبد الملك الصالح (*)

عمل أهل العلم على خدمة السنة النبوية وتبويبها بما يُسهّل على من جاء بعدهم النظر فيها، ووضعوا لذلك العديد من القواعد والضوابط بعد استقراء نصوص الشريعة من كتاب وسنة، فإذا وردت بعد ذلك مقولات أو استنتاجات فينبغي عرضها على هذه القواعد والضوابط لمعرفة مدى قبولها.

تَشِيعُ مَقولةُ (السنة النبوية ليست كلها تشريعًا) بين المشتغلين بالعلم الشرعي على اختلاف توجهاتهم ومقاصدهم واستعمالاتهم لهذه الجملة، فبينما استعملها أهل العلم للسَّبر والتقسيم، ولاستثناءِ عددٍ مِن تصرفات النبيِّ ﷺ مِن وجوب الاتِّباع لأسبابٍ سيأتي ذكرُها، يتوسَّع عددٌ من المعاصرين في فهمها ويتّكئون عليها لإخراج أنواع مِنَ السنة الواردة عن النبي ﷺ مِن حَيِّز الاحتجاجِ بها بمزاعمِ شتى يجمعُها ترك العمل بسنة النبي ﷺ، توصُّلًا إلى تغيير عدد من الأحكام بحجة أنه ليس فيها تشريع.

فما قيمة هذه المقولة من الحقيقة؟ وكيف يتعامل المسلم معها؟ وكيف يُميّز بين أنواع السنة الواردة عن النبي ﷺ إذا كانت هذه المقولة حقيقة؟

معنى السنة، ومعنى كون السنة تشريعًا:

السنة في اللغة هي: السيرة والطريقة[1].

والسنة في الاصطلاح هي: ما صدر عن رسول الله ﷺ مِن قولٍ أو فعلٍ أو تقرير[2].

والشريعة: اسمٌ للأحكام الجزئية التي يتهذَّب بها المكلَّف معاشًا ومعادًا، سواء كانت منصوصةً من الشارع أو راجعةً إليه[3].

(*) إجازة في الشريعة من جامعة دمشق، ماجستير في الحديث وعلومه.

(١) لسان العرب، لابن منظور (٢٢٥/١٣).

(٢) البحر المحيط، للزركشي (١٦٤/٤).

(٣) الكليات، للكفوي (ص: ٥٢٤).

والحُكمُ الشرعي في الاصطلاح: خطاب الله تعالى المتعلِّق بأفعال العباد: طلبًا أو تخييرًا أو وضعًا.

فالحكم الشرعي نوعان:

النوع الأول منه (الحكم التكليفي) هو خمسة أقسام: (الوُجوبُ، والنَّدبُ، والإباحَةُ، والكَراهَةُ، والتَّحريمُ).

والنوع الثاني منه (الحكم الوضعي) وهو كون الشيء سببًا أو شرطًا، وكون الفعل صحيحًا أو فاسدًا. وهذا النوع الثاني خارجٌ عن مقدور المكلَّفين لذا لن نتكلم عنه.

ومعنى كون السنة تشريعًا: أنَّها مصدرٌ تشريعيٌّ يُستفادُ منها شرعٌ، وهو كونُ الفعل مندرجًا تحت أنواع الحكم التكليفي الخمسة (الوجوب، الندب، الكراهة، التحريم، الإباحة).

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «وضعَ اللهُ رسولَه من دينه وفرْضه وكتابه الموضع الذي أبانَ -جل ثناؤه- أنه جعله عَلَمًا لدينه، بما افترضَ من طاعته، وحرَّم من معصيته، وأبانَ من فضيلته، بما قَرنَ من الإيمان برسوله مع الإيمان به».

وقال: «ففرضَ الله على الناس اتباع وحيه وسُنن رسوله».

وقال: «وأنَّ الله افترض طاعة رسوله، وحَتم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقولٍ: فرضٌ، إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله»[1].

ما الجديد في مقولة (السنة ليست كلها تشريعًا)؟

الجديد في التعامل مع هذه المقولة (السنة ليست كلها تشريعًا) هو توسيع بعض المعاصرين لمفهومها توسيعًا غير مقبول، حتى أساؤوا استخدامها وأخرجوا بعض أقسام السنن من الاحتجاج بها، وللتوضيح لا بدَّ من معرفة أقسام السنة النبوية.

الأصل في السنة النبوية:

اتَّفق أهل العلم على أنَّ الأصل فيما ورد عن النبي ﷺ أنَّه حجةٌ شرعيةٌ يكلَّف المسلم باعتقاد أنها حجة أولًا، ثم بالعمل بها على وفق درجات الطلب الوارد فيها أمرًا أو نهيًا أو تخييرًا.

والأمر على درجتين: أمرُ إيجابٍ وأمرُ ندبٍ، والنهي على درجتين: نهي تحريمٍ ونهي تَنْزِيهٍ، والقسم الثالث هو التخيير، والتخيير حكمٌ شرعي؛ لأنَّ معناه أنَّ هذا الأمر الذي يخير المكلف بين إتيانه أو تركه لا حرج عليه في فعله ولا في تركه.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: «واعلم أن أشدَّ الأحوال التي ذكرناها اختصاصًا برسول الله ﷺ هي حالةُ التشريع؛ لأن التشريعَ هو المرادُ الأول لله تعالى من بعثته، حتى حَصَرَ أحوالَه فيه في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]. فلذلك يجبُ المصيرُ إلى اعتبار ما صدر عن رسول الله ﷺ من الأقوال والأفعال فيما هو من عوارض أحوال الأمة صادرًا مصدر التشريع، ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك»[2].

> **أشدُّ الأحوال اختصاصًا برسول ﷺ هي حالةُ التشريع؛ لأن التشريعَ هو المرادُ الأول لله تعالى من بعثته، حتى حَصَرَ أحوالَه فيه في قوله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ}**
>
> الطاهر بن عاشور

أقسام السنة النبوية:

قرَّر عُلماءُ الإسلام أن التصرفاتِ الفعليةَ والأقوالَ والتقريراتِ التي وصلتنا عن النبي ﷺ ليست كلُّها على نوعٍ واحد وفي مرتبة واحدة، وميّزوا بين أنواعها على أُسسٍ علمية رصينة، ووضعوا القواعد التي بها يميز المسلم بين أنواع السنة النبوية.

---

(١) الرسالة، (٧٥-٧٧).

(٢) مقاصد الشريعة، لابن عاشور (١٣٦/٣).

وقد قسَّموا التصرفاتُ النبويةَ في الجملة إلى خمسة أقسام، هي:[1]

- القسم الأول: ما صدر عنه ﷺ بوصفه نبيًا ورسولًا مبلغًا عن الله تعالى.
- القسم الثاني: ما صدر عنه بوصفه الإمام الأعظم في دولة الإسلام، والحاكم الأعلى فيها.
- القسم الثالث: ما صدر عنه بوصفه قاضيًا يقضي بين الناس.
- القسم الرابع: ما صدر عنه من التصرفات الإنسانية العادية.
- القسم الخامس: ما فعله ﷺ ودَلَّ الدليلُ على أنَّه من خصوصياته.

فهذه الأقسام لكل منها حكم خاص به، حسب التفصيل التالي:

القسم الأول: ما صدر عن النبي ﷺ باعتباره مُبلِّغًا للشريعة عن الله تعالى، وهو حجّةٌ على كل مكلَّف، سواء كان قولًا أو فعلًا أو تقريرًا، فكل ما أمر به أو نهى عنه في أمور الدين (العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق)، وما فعله بيانًا للقرآن الكريم، وما أقَرَّه، وما أمر به أو نهى عنه ممّا لم يوجد في كتاب الله، فهو حجّة على كلِّ مكلَّف؛ لأنَّ هذه التصرُّفات يشملها الأمر العام بالاقتداء به وطاعته ﷺ، فعلًا في الأمر، وتركًا في النهي.

والدليل على هذا القول من كتاب الله تعالى، ومن سنة النبي ﷺ، وعليه إجماع الأمة:

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وغيرها من الآيات التي يُبيِّنُ اللهُ تعالى فيها بوضوح وجوبَ طاعةِ الرسول ﷺ، ويربطُ الفلاحَ بهذه الطاعة، ويَعدُّ طاعةَ الرسول ﷺ طاعةً لله تعالى، ويُحَذِّر مِن مخالفة أمره ﷺ، ويبين أن مخالفتَه سببٌ للعقوبة والعذابِ الأليم على المخالفين.

ومن الأحاديث النبوية قوله ﷺ: (كلُّ أُمتي يدخلون الجنة إلا من أَبَى، قالوا: يا رسول الله، ومن يَأبى؟ قال: مَن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أَبَى)[2].

وقوله ﷺ: (ما نَهيتُكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم)[3].

قال الإمام القَرافي رحمه الله: «فكلّ ما قاله ﷺ أو فعله على سبيل التبليغ كان ذلك حكمًا عامًا على الثَّقلين إلى يوم القيامة، فإن كان مأمورًا به أَقدَم عليه كلُّ أحدٍ بنفسه، وكذلك المباح، وإن كان منهيًا عنه اجتنبه كلُّ أحدٍ بنفسه»[4].

وأجمع العلماء على الاحتجاج بالسُّنة النبوية، قال الإمام الشافعي رحمه الله: « ولا أعلمُ من الصحابة ولا التابعين أحدًا أخبر عن رسول الله ﷺ إلا قَبِلَ خبره، وانتهى إليه، وأثبت ذلك سنة»[5].

القسم الثاني: ما صدر عن النبي ﷺ باعتباره الإمام الأعظم (حاكم الدولة)، كتجهيز الجيوش، وقسمة الغنائم، وإقامة الحدود، فهذه أحكامٌ سلطانيةٌ أقامها النبي ﷺ فيُقيمها مِن بعده الحكّامُ والسلاطين، قال الإمام القَرافي رحمه الله: «وكلُّ ما تصرف فيه عليه السلام بوصفِ الإمامة لا يجوز لأحدٍ أن يُقدم عليه إلا بإذن الإمام، اقتداء به

---

(١) هذا التقسيم مأخوذ من مجمل كلام أهل العلم على تقسيم تصرفات النبي ﷺ في عدة مصادر، ذكر منها القرافي رحمه الله الأقسام الثلاثة الأولى، وذكر ابن عاشور في (مقاصد الشريعة الإسلامية) اثني عشر تقسيمًا: وهي: التشريع، والفتوى، والقضاء، والإمارة، والهَدي، والصلح، والإشارة على المستشير، والنصيحة، وتكميل النفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرّد عن الإرشاد. وذكر انقسام التصرفات إلى أنواع كلٌّ من: ابن قتيبة وابن القيم والدهلوي، وغيرهم. وذكر بعضهم تقسيم التصرفات إلى تشريعية وغير تشريعية، وقسَّمَ التشريعية إلى أنواع، وهكذا. فرأيت أن كثيرًا منها يتداخل في بعضها، فجمعتها في هذه الأقسام العامة.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٤) أنوار البروق في أنواء الفروق، للقرافي (٢٠٦/١).

(٥) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، للسيوطي (٥٠).

عليه السلام؛ ولأنَّ سبب تصرفه فيه بوصف الإمامة دونَ التبليغ يقتضي ذلك»[١].

ومعنى أنّ هذه التصرّفات من الأحكام السلطانية: أنّ المخاطب بها هو الحاكم الذي يلي أمور العامّة، أما عامة الناس فلا يجوز لهم التصدّي لها والقيام بها إلا بأمر الإمام، فلا يجوز للناس -مثلًا- إعلان الجهاد داخل الدولة أو خارجها إلا بأمر الإمام، ولا يجوز لهم إقامة الحدود إلا بأمر الإمام.

وفي المقابل: ليس معنى كون هذه التصرفات من الأحكام السلطانية أنّها ليست شرعًا؛ فليس للإمام اختراع حدودٍ لم يشرعها الله، ولا تعطيل الحدود التي شرعها الله، ولا يجوز له التصرُّف في أموال الأمّة إلا بما أذن الله به وفي مصلحة الأمة، وهكذا.

ولخطورة هذه الأحكام وتأثيرها على الأمة لم تُترك لاجتهاد الحاكم الشخصي، فقد أمرت الشريعة الإمامَ بالشورى فيها، والشورى تكون من أهل العلم الشرعي ومن الخبراء في الأمر الذي يقدّر فيه الإمام مصلحة الأمة، فأهل العلم الشرعي يُخبرون الإمام بحكم الله فيها، ممّا في كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ، وأهل الخبرة يُخبرونه بالأحسن من الطرق لتنفيذها.

قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨]، وقد طبَّق النبي ﷺ الشورى في الأمور العامة في حياته كما هو معلوم، ونقلت مدونات السنة وكتب التاريخ ذلك بالتفصيل.

ويدخل تحت هذا القسم بعض أقوال النبي ﷺ التي تكلم فيها أهل العلم قديماً: هل هي تشريع عام يجب أن يلتزمه كل من بعده، أم أنه قاله بصفته إمامًا مجتهدًا في ظرف معين، فللإمام من بعده أن يجتهد فيه؟، ومثاله حديث (من قتل قتيلاً فله سلبه) وحديث (من أحيا أرضًا مواتًا فهي له)، فهذا مرجعه إلى القرائن من فهم الصحابة الذين عاصروا التنزيل، وفقه العلماء المجتهدين، ويبقى من الخلاف السائغ بينهم، وإن كان فعله ﷺ يدل على الجواز في أقل مراتبه.

القسم الثالث: ما صدر عنه ﷺ بوصفِه قاضيًا يقضي بين الناس، كقوله ﷺ لهندِ بنت عُتبة امرأةِ أبي سفيان لما قالت: يا رسولَ الله إن أبا سفيان رجل شَحيحٌ وليس يعطيني ما يكفيني وَوَلدي، إلا ما أخذتُ منه وهو لا يعلم، فقال عليه الصلاة والسلام: خُذي ما يكفيكِ وَوَلَدَك، بالمعروف)[٢]، وكحُكمه ﷺ بين الزبير بن العوام وحميد الأنصاري رضي الله عنهما في خلافهما في سَقيِ النَّخل: «اسْقِ يا زبَيرُ، ثم احْبِسِ الماء حتى يرجِعَ إلى الجَدْرِ»[٣].

فمثل هذه الحوادث تكلّم فيها أهل العلم قديمًا، هل قضاء النبي ﷺ فيها تشريع عامٌ في مثلها أو مرجعه إلى القاضي الذي ينظر فيها، ويسترشد بأقضية النبي فيها؟ فإن كانت الحالة مشابهةً قضى بذلك، قال الإمام القَرافي رحمه الله: «وما تصرف فيه ﷺ بوصفِ القضاء لا يجوز لأحدٍ أن يُقدم عليه إلا بحُكم حاكم، اقتداءً به ﷺ؛ ولأن السبب الذي لأجله تصرَّف فيه ﷺ بوصفِ القضاء يقتضي ذلك»[٤].

وحتى ما ورد من أقضية خاصة كقوله ﷺ: (إنَّما أنا بَشر، وإنكم تختصمونَ إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحَنَ بِحُجَّته من بعض؛ فأقضي له بنحوِ ما أسمع، فمن قضيتُ له بحقِّ أخيه فإنَّما أقطعُ له قطعةً من النَّار)[٥]، فإنه يستفاد منها تشريعٌ عامٌّ لجميع الأمة أنه حكم القاضي لا يبيح الحرام، وما أخذ بالباطل فإنه سيُحاسب عليه في الآخرة.

> **ما صدر عن النبي ﷺ من التصرفات الإنسانية العادية إذا اقترن به ما يدل على أنه واجب أو مندوب ينتقل حكمه من الإباحة إلى ما دلَّ عليه الدليل.**

القسم الرابع: ما صدر عن النبي ﷺ من التصرفات الإنسانية العادية (الجبلّية)، فهذه التصرفات يستفاد منها شرع وهو الحكم بإباحتها، ومن أمثلتها: لبسه ﷺ العمامة التي كان يلبسها قومه.

(١) أنوار البروق، للقرافي (٢٠٦/١).
(٢) أخرجه البخاري (٥٣٦٤).
(٣) أخرجه البخاري (٢٣٥٩)، ومعنى (الجَدْر): أصل الحائط.
(٤) أنوار البروق، للقرافي (٢٠٦/١).
(٥) أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومعنى (ألحَنَ بِحُجَّته): أقدر على بيان مقصوده.



لكن إذا اقترن بهذه التصرّفات ما يدل على أنّها واجبة أو مندوبة فينتقل الحكم من الإباحة إلى ما دلّ عليه الدليل.

وبالمثال يتضح المقال:

في اللباس: كان النبيُّ ﷺ يلبس ما يتعارف عليه الناس في وقته، وما هو متوفر من أنواع القماش وطريقة تفصيلها وخياطتها، لكنه عليه الصلاة والسلام أمر بلبس البياض، وذكر فضيلةً لِلُبْسِ البياض، فقال: (اِلبَسوا من ثيابكم البَياض؛ فإنها من خيرِ ثيابكم، وكفِّنوا فيها موتاكم)(١)، فهذا الأمر منه ﷺ يُخَصِّصُ هذا النوعَ من ألوان الثياب بفضيلة، ويأمر به على سبيل الندب، فيخرج هذا النوع من حَيِّزِ المباح إلى حَيِّزِ المندوب المطلوب فعله.

وفي الطعام: كان النبي ﷺ يأكل كما تعارف الناس في زمانه، ويأكل بيده كما يأكل قومه بأيديهم، فدلّ ذلك على أنَّ الأكل باليد من المباح، وأَمَرَ عليه الصلاة والسلام بالأكل والشرب باليد اليمنى، وأَمَرَ بالأكل من جانب القصعة لا من وسطها، فتنتقل هذه الهيئات في الأكل والشرب من حَيِّزِ المباح إلى حَيِّزِ المطلوبِ المُثابِ عليه، وقِسْ على هذا.

وعلى العكس: لو نهى النبي ﷺ عن نوع من الثياب التي يتعارف الناس في وقته على لبسها، تخرج بهذا النهي عن حيّز المباح إلى حيّز المنوع، إما على سبيل التحريم وإما على سبيل الكراهة، كنهيه ﷺ الرجالَ عن لبسِ الحرير ولبسِ الذهب، وعن الأكل والشرب في آنيةِ الذهب والفضة، فقال ﷺ: (لا تَشربوا في آنيةِ الذَّهب والفضة، ولا تَلبسوا الحريرَ والدِّيباجَ)(٢)، فهذا النهيُ أخرج التصرفات المنهي عنها من حيِّز المباح في الأصل إلى حيز المُحَرَّم، فهذه الأحاديث والأخبار حجّة شرعية بلا شك، لأنّ عموم الأمر بطاعته ﷺ يشملها كما سبق.

ومما يُستفاد من هذا القسم: أن العادة والعرف في أمثال هذه الأمور مشروع، ويكون قاعدة لمعرفة العديد من الأحكام الشرعية فيها، كنهيه ﷺ عن ثوب الشهرة، فقد استنبط منه أهل العلم ضوابط الحكم على اللباس بكونه شهرة في لونه أو شكله أو قيمته بالرجوع للعرف.

(١) المرجع السابق (٨/٤) (رقم: ٣٨٧٨).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٣٣)، ومسلم، (٢٠٦٧).

الخصوصيات في حق النبي ﷺ ثلاثة أنواع:
الأول: واجبٌ عليه غيرُ واجب على أمته.
الثاني: مباحٌ له دون أمته.
الثالث: حرامٌ عليه غيرُ حرامٍ على أمته.

القسم الخامس: ما صدر عن النبي ﷺ ودَلَّ الدليلُ على أنَّه مِن خُصوصياتِه.

وهذا القسم الأصل فيه أنَّه لا تكليفَ فيه، لاختصاصِه بالنبي ﷺ، لكن الخصوصية فيه ليست مطلقة، بل قد تكون درجةُ التكليف فيه بالنسبة للنبي ﷺ هي التي من خصوصياته، ويكون مشروعًا لأمته بدرجة أخرى، وللتوضيح نقول:

إنَّ الخصوصيات في حق النبي ﷺ ثلاثة أنواع:

- الأول: واجبٌ عليه غيرُ واجبٍ على أمته.
- الثاني: مباحٌ له دون أمته.
- الثالث: حرامٌ عليه غيرُ حرامٍ على أمته.

فالأول: كقيام الليل، هو واجب على النبي ﷺ، لكنَّ كونه من خصوصيات النبي ﷺ لا ينفي مشروعيته للأمة، بل اتفقت كلمة الفقهاء على أنَّ قيام الليل مشروع في حقِّ الأمَّة، وهو في درجة الندبِ بالنسبة لغير النبي ﷺ.

أما الثاني: فكجواز الجمع بين أكثر من أربع نسوة في الزواج، وكجواز الوصال في الصوم، فهذا أيضًا له درجات، فما دل الدليل الشرعي على تحريمه على الأمة كان حرامًا عليهم، كالجمع بين أكثر من أربع نسوة في الزواج، وقد دلَّ الدليل على تحريمه على غير النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣]، قال عكرمة رحمه الله في تفسير هذه الآية: «فَنُهوا أن يتزوجوا فوقَ الأربع»[١]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أسلم غَيلانُ الثقفي وعنده عَشر نِسوة، فقال رسول الله ﷺ: (أمسِك أربعًا، وفارِق سائرهنَّ)[٢].

وإن لم يدلَّ الدليل على تحريمه فيكون النهي عنه للكراهة، كالوصال في الصوم، فهو مكروه لأمته، عن عبد الله رضي الله عنه: أن النبي ﷺ وَاصَلَ، فواصَلَ الناس، فشقَّ عليهم فنهاهم، قالوا: إنَّك تواصِل! قال: (لَستُ كَهيئتِكم، إنِّي أظلُّ أُطعم وأُسقى)[٣].

قال الترمذي رحمه الله: وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ: كَرِهُوا الوِصَالَ فِي الصِّيَامِ[٤].

وأما الثالث: فهو كتحريم إحداثه زواجًا بعد زواجه بميمونةَ رضي الله عنها، وقد تزوجها في العام السابع للهجرة، وأنزل الله تعالى بعد زواجه بها قولَه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٢] ففي هذه الآية حرَّم اللهُ على النبي ﷺ إحداثَ زواج جديد، حتى لو توفيت أزواجه كلهن، رضي اللهُ عنهن، وهذا لا يتوجه فيه الخطاب التكليفي للأمة قطعًا؛ لأن الخطاب الشرعي جاء خاصًا بالنبي ﷺ دون غيره من أفراد الأمة.

إن أحكام الشرع الشريف وإن شرعت لجلب مصالح المكلفين الدنيوية والأخروية، لكنَّ ميزانَ اعتبار المصالح وعدم اعتبارها هو أدلةُ الشرع لا أذواق ورغبات المكلفين

الخلاصة:

يتلخَّصُ لنا أنَّ الأصل فيما يصدُرُ عنه ﷺ هو التشريع، لكن هذا التشريع له حالات ومراتب، فقد يكون تشريعًا خاصًا بالأئمة والقضاة دون غيرهم، وقد يكون تشريعًا غير ملزم وهو المباح، وقد يكون تشريعًا ملزمًا وهو باقي الأحكام التشريعية (الواجب والمندوب والمكروه والمحرّم).

وحملُ هذه التصرّفات على غير التشريع هو خلاف الأصل العام، والذي يحكم به هم أهل العلم المُطَّلِعونَ على أدلة الشرع العَارِفونَ بمراتب الأدلة ودلالاتها، والمُطَّلِعون على السنَة بتفاصيلها ورواياتها وقد اشترطوا لذلك وجودَ القرينةِ الصالحةِ لِصَرفِ الأمرِ مِن الصفةِ التشريعيةِ إلى

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للطبري (٦/٣٦١).
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤١٥٧).
(٣) أخرجه البخاري (١٩٢٢)، والمواصلة: متابعة الصيام بين اليومين من غير إفطار بالليل.
(٤) أخرجه الترمذي تحت الحديث رقم (٧٧٨).



غيرها من الأوصاف، كما مر معنا في كلام الطاهر بن عاشور رحمه الله «فلذلك يجب المصير إلى اعتبار ما صدرَ عن رسول الله ﷺ من الأقوال والأفعالَ فيما هو من عوارض أحوال الأمة صادرًا مصدر التشريع ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك»[١].

ومن أمثلة تلك القرائن قوله «أنتم أعلمُ بأمورَ دنياكم»، و«لعلَّ بعضَكم أن يكونَ أَلْحَنَ بحُجتِهِ مِن بعض فأقضي له على نَحوِ ما أسمع»، و«لستم كهيئتي إنما يطعمني ربي ويسقين»، و«لا ولكن لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه» وأمثالها.

> **الأصل فيما يصدر عنه ﷺ هو التشريع، لكن هذا التشريع له حالات ومراتب**

ومن قواعد التمييز بين هذه الأقسام:

- فهمُ الصحابة رضي الله عنهم قولًا وعملًا تطبيقيًا، فهم أعلم بالوحي ممن بعدهم، وعاصروا التنزيل.
- وكذا: فهم علماء التابعين، وإجماع العلماء من أهل الاختصاص[٢].

فمحاولة بعض المعاصرين إخراج كثيرٍ من كلامه ﷺ عن قصد التشريع وحمله على محامل أخرى دون قرائن، ودون أن يكون لهم سَلَفٌ في ذلك إلا اعتبار مصالحَ مظنونةٍ في زعمهم، يقود إلى تنحية السنة النبوية الشريفة عن كثيرٍ من نواحي الحياة العملية، من اقتصاد وسياسة وعادات ومعاملات وأخلاق، وشؤون الحرب والطب ونحوها، بحجة أن هذه الأمور يديرها الناس بحسب تجاربهم الحياتية العملية وبحسب ما يرون من مصلحتهم، دون التفات إلى ما ورد في السنة النبوية بشأنها من أوامر ونواهٍ وتوجيهات، متكئين في هذا على أن ما ورد عنها في السنة النبوية إنما كان لمصالح وقتية في ذلك العصر، ويؤدي هذا في المآل إلى خَطَرِ تعطيل شرع الله، وتشريع أحكام أخرى لم يأذن بها الله، مع نزعة حَصْرِ الدِّين في أمور العقائد والعبادات فقط.

إن أحكام الشرع الشريف وإن شرعت لجلب مصالح المكلفين الدنيوية والأخروية، لكنَّ ميزانَ اعتبار المصالح وعدم اعتبارها هو أدلةُ الشرع لا أذواق ورغبات المكلفين، فالله تعالى أعلم بعباده وبما يصلحهم وبما لا يصلح لهم، فإذا أمر الله تعالى بشيء ففيه المصلحة في الدنيا والآخرة، وإذا نهى عن شيء ففيه الضرر في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية، لابن عاشور، ص (١٥٤).

(٢) «ولعل من السائغ أن نُضيفَ في هذه العصور المتأخرة قيدًا آخر وهو: «أن يكون القولُ بأن ما صدر عنه ﷺ في حادثةٍ بعينِها ليس بصفة التشريع قولًا قديمًا لأهل العلم، لا قولًا حديثًا للمعاصرين؛ لأن مثل هذا القول لا يتغير بتغير الزمان، وصدورُه عن المعاصرين دونَ المتقدمين دليلٌ على تأثرهم بأحوالِ زمانِهم، وهذا كافٍ في إسقاطِ الاستدلالِ به». من كتاب (كي لا يكون الخلافُ مِعولًا للهدم) - معن عبد القادر كوسا (٤٢).



حضارة وفكرة

نحو قراءةٍ متأنيَّةٍ للتاريخ الإسلاميِّ

أ. موفق شيخ إبراهيم (*)

تاريخ كل أمة هو هويتها، والمعبر عن مشروعها وقيمها وأخلاقها؛ لذلك تهتم الأمم بتاريخها وتنقله لأجيالها، وتعكف على أحداثه لتستنبط منها العبر في قادم الأيام. وأمتنا الإسلامية تملك تاريخًا عظيمًا مليئًا بالمنجزات والعبر، حاولت أقلام الحاقدين تشويهه لإسقاطه، وتناقلت هذا التشويه أقلام مغرضة أو جاهلة، مما يستدعي التنبيه إلى كيفية التعامل مع أحداثه ومروياته، والأخطاء التي وقعت فيه، وفي هذا المقال بعض الإضاءات في هذا الموضوع.

التاريخ بجملته هو تعبيرٌ عن فهم الماضي؛ لإفادة الحاضر، والبناء عليه في التخطيط للمستقبل. هو تأمُّلٌ ودراسةٌ وسبرٌ لأغوار مختلف أوجه النشاط الإنسانيِّ فيما مضى من أحداثٍ في الأزمنة السالفة؛ تهدف إلى رصد أسباب الظواهر التاريخيَّة المختلفة، ومحاولة تبيان جوانب العلاقة السببيَّة في طيَّات الأحداث التاريخيَّة، وتتبُّع بدايات الأحداث ومعرفة أصولها.

إذن هو عِلمٌ يتعلَّق بالمكان والزمان، بما فيه من وقائعَ وأحداثٍ، وما يكون لها من أثرٍ في حياة الناس، واستكشافٌ كُليٌّ لتطوُّر أحوالَ البشريَّة منذ بداية الخليقة، ومحاولةٌ لكشف هدف الوجود الإنسانيِّ على وجه هذه البسيطة، وكذا عن مصير الإنسان في الحاضر والمستقبل.

تاريخ المسلمين هوية الأمَّة، والمسلم فردٌ من هذه الأمَّة، يرتبط تاريخياً بقافلة المؤمنين من الرسل والصحابة، ومَن نهج نهجَهم إلى يوم القيامة. يحسُّ أنه واحدٌ منهم، ويتفاعل معهم، ويعتزُّ بانتمائه إلى هذه القافلة المؤمنة، ويخجل ممَّا سواها على مرِّ الأيام والدهور.

دخل الإسلام التاريخ من بابٍ عريضٍ، وبمنهجٍ ربانيٍّ خالدٍ وصالحٍ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، أخذتْ رقعته تتوسَّع، بما يملك من خصائص ومقوماتٍ، في أرجاء المعمورة التي شهدت أصقاعها النور في وسطٍ حالكٍ بالظلمة.

مَلكْنا فكان العَفْو منَّا سَجيَّةً
فلمَّا ملكْتُمْ سالَ بالدَّمِ أبْطَحُ

فحسْبُكُمُ هذا التَّفاوتُ بيْنَنا
وكلُّ إناءٍ بالـذي فيهِ يَنْضَحُ[1]

(*) رئيس مجلس إدارة وقف الإمام الشاطبي للقرآن الكريم وعلومه، كاتب ومؤلف في قضايا التراث والمعاصرة.

(1) البيتان لابن الصيفي، انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، (٦/ ٤١٠).

وفي توصيف بديع بثوب أدبيٍّ قشيب، يقول الشاعر الهنديُّ [ألطاف حسين]، المتوفَّى سنة ١٣٣٣هـ: «لقد هاجت سحابةٌ من بطحاء مكَّة ملأت سمعَ الزمان وبصرَه، وشرَّق وغرَّب رعدُها وبريقُها، فبينما رعدت على نهر [تاجه] في [إسبانيا] أمطرت على نهر [الكنج] في شبه القارَّة الهندية.

لقد أحيا غيثُها مزرعة الإنسانية القاحلة، وعمَّ بِرُّها البرَّ والفاجرَ! فما ترى في العالم من رواءٍ، وبهاءٍ، ونورٍ، وسناءٍ؛ إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية»(١).

ومنذ بداية ظهور هذا الدين، كتب النصارى في الشام سنة ١٣هـ أي في القرن السابع الميلاديِّ، إلى أبي عبيدة بن الجراح ﷺ يقولون: «يا معشر المسلمين، أنتم أحبُّ إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكفُّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا»(٢). واستمرَّ هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام.

> **نحن لم ندخل التاريخ بأبي جهل وأبي لهب، ولكن دخلناه بمحمَّدٍ وأبي بكر، ولم نفتح الفتوح بداحس والبسوس والغبراء، ولكن فتحناها ببدرٍ والقادسية واليرموك، ولم نحكم الدنيا بالمعلَّقات السبع، ولكن حكمناها بالقرآن المجيد، ولم نحمل إلى الناس رسالة اللات والعزَّى، ولكن حملنا إليهم رسالة الواحد القهَّار**
>
> الأستاذ عصام العطار

انتشر الإسلام بغاية العدل والإحسان، وبثباتٍ وقوةٍ ووضوح، مع روحٍ عاليةٍ من التسامح والرفعة والتسامي والإنسانية، وهذا ما يفسِّر انتشاره بسرعةٍ، بما يمتلك من قوةٍ ذاتيةٍ وخصائص ذات صبغةٍ ربانيةٍ، لم تشهد البشرية أنصع منها وضوحاً أو أفضل منها منهجاً.

لقد كان أثر الرحَّالة، والتجَّار واضحاً في نشر الإسلام في أفريقيا وآسيا، جنباً إلى جنبٍ مع القوة العسكرية والسياسية للدولة الإسلامية، دون إغراءٍ أو تهديدٍ.

ولو نظرنا إلى خريطة العالم الإسلاميِّ اليوم، لرأينا أن أكثر مسلمي العالم، هم سكَّان بلاد أندونيسيا والهند والصين وسواحل القارة الإفريقية، وهي بلاد لم تواجه الإسلام ولم تحاربه، فدخلها التجَّار والدعاة آمنين، ونشروا الإسلام بأخلاقهم وتعاملاتهم وتسامحهم.

وهذه حقيقةٌ تاريخيةٌ لا تقبل التزوير أو التزييف، حتى إنَّ غير المسلمين شهدوا بها، ويعدُّ [توماس آرنولد]، من أبرز من أرَّخ لانتشار الإسلام، يؤكِّد في كتاباته على حقيقة السماحة الإسلامية فيقول: «إنَّه من الحقِّ أن نقول: إنَّ غير المسلمين قد نعموا بوجه الإجمال في ظلِّ الحكم الإسلاميِّ، بدرجةٍ من التسامح لا نجد لها معادلاً في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسطٍ إسلاميٍّ، يدلُّ على أنَّ الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمِّتين والمتعصِّبين، كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصُّب وعدم التسامح»(٣). ويضيف قائلًا: «كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم، ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الدينيِّ. تمتعوا وخاصَّة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء، في الأيام الأولى من الخلافة»(٤).

ومن دواعي الإنصاف أن نُثبت بأنَّ تاريخَنا ليس جميعُهُ جملةً من السلبياتِ والنقاطِ السوداءِ -كما يشتهي أعداؤنا من مستشرقين حاقدين ومن حفنةٍ من أذنابهم المستغربين أن يجعلوه هكذا- بل هو صفحاتٌ ناصعاتٌ نستفيد منها دروساً عظاماً، وهذه الصفحات هي في الأصل تعاليمٌ قبل أن تصبح واقعاً على الأرض، فرضَها الشارع الحكيم حالة الحرب وحالة السلام؛ وتعاليم الشريعة تقتضي في حال نشوب حربٍ فثمَّة مبادئ تضبطها، فالإسلام مثلاً يفرض على المسلمين الاعتناء بجرحى أعدائهم ومداواتهم وإطعامهم.

كما يطلب الإسلام من المسلمين تجنيبَ المدنيين شرور الحرب وأخطارها، فقد ميَّز تمييزاً جلياً بين المقاتلين وغير المقاتلين، ومن لم يباشر القتال بنفسه من الأعداء، فليس للمسلم أن يقتله أو يتعرَّض له بأذى.

---

(١) الطريق إلى المدينة، أبو الحسن الندوي، ص (١١٣).

(٢) فتوح البلدان، البلاذري، ص (١٣٩). وانظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص (٧٣).

(٣) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد ص (٧٢٩-٧٠٣). ترجمة د. حسن إبراهيم حسن. د. عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي.

(٤) المرجع السابق، ص (٨١).

تاريخَنا ليس جملةً من السلبياتِ والنقاطِ السوداءِ - كما يشتهي أعداؤنا من مستشرقين حاقدين ومن حفنةٍ من أذنابهم المستغربين أن يجعلوه هكذا - بل هو صفحاتٌ ناصعاتٌ نستفيد منها دروساً عظاماً

وتعاليم النبيِّ ﷺ واضحةٌ في هذا الشأن؛ فالأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمعتوهون، بل حتى الفلاحون في حرثهم، والرهبان في معابدهم، كل أولئك معصومون بحصانة القانون من أخطار الحرب»[١]. ومن عظمة الإسلام أنه لا يحرص على تجنيب المدنيين من الأعداء ويلات الحرب فحسب؛ بل حرص على تجنيبهم مجرَّد الألم النفسيِّ. مرَّ بلالٌ مؤذن الرسول ﷺ بامرأتين من نساء اليهود يوم خيبر على عددٍ من قتلى قومهما، فتألمتا لذلك، فلما علم النبيُّ ﷺ بما صنع بلال عاتبه على ذلك وقال له: «أنزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمرُّ بامرأتين على قتلى رجالهما»[٢].

ومن المعالم الحضارية لتاريخنا الإسلاميِّ، وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان، وهو متوجِّه إلى ميدان القتال: «...إنك ستلقى أقواماً زعموا أنهم قد فرَّغوا أنفسهم لله في الصوامع فذرهم وما فرغوا أنفسهم له... ولا تقتلنَّ مولوداً، ولا امرأةً، ولا شيخاً كبيراً، ولا تعقرنَّ شجراً بدا ثمرُهُ ولا تحرقنَّ نخلاً، ولا تقطعنَّ كرماً، ولا تذبحنَّ بقرةً، ولا ما سوى ذلك من المواشي إلا لأكل»[٣].

ومن تعليمات النبيِّ ﷺ المتكررة، والتي أخذت صفة التواتر لقواده العسكريين، الالتزام بالنظام وحسن السلوك، وعدم اللجوء إلى أساليب السلب والنهب، التي كانت عادة الجيوش الغازية في ذلك الزمن!

الحكم على التاريخ، ووسائل الإفادة منه:

يعلم كلُّ باحثٍ منصفٍ، أنَّ ما حقَّقته الأمَّة عبر تاريخها، يعدُّ عاملاً مهماً في تغيير تاريخ البشرية إلى الأفضل؛ ومن هنا يجب علينا أن نساهم من جديدٍ لإعادة النهوض الحضاريِّ لها. وليست مهمتنا الحكم على التاريخ، ولكن فهمه للإفادة منه[٤]؛ ومن ثَمَّ فهم الواقع والنهوض به؛ فعلم التاريخ ومعرفته تجربةٌ وعبرةٌ، أو كما يعبِّر عنه ابن خلدون في مقدمته:» فنُّ التاريخ فنٌّ عزيز المذهب جمُّ الفوائد شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيَرِهِم والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتمَّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا...»[٥].

ويعرِّفنا ابن خلدون على حقيقة التاريخ فيقول: «اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ، أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال»[٦].

ومن يتأمَّل تعريف ابن خلدون للتاريخ، يلحظ كيف أن التاريخ ضرورةٌ حضاريَّةٌ لفهم الإنسان من خلال تاريخه.

ثم إنَّ القرآن الكريم يبيِّن لنا «الهدف من إيراد القصص والعروض التاريخية، وهو الهدف نفسه الذي يمكن أن يتمخَّض عن أيِّ مطالعةٍ جادَّةٍ ذكيَّةٍ واعيةٍ ملتزمةٍ للتاريخ: إثارة الفكر البشري، ودفعه إلى التساؤل الدائم والدائب عن الحقِّ، تقديم خلاصات التجارب البشرية عبَرَاً يسير على هديها أولوا الألباب؛ إزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان، وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة لكي تظلَّ في مقدمة قواه الفعَّالة التي هو بأمسِّ الحاجة إلى تفجير طاقاتها دوماً»[٧]. وقد دعانا القرآن

(١) انظر كتاب دراسات إسلامية، د. عبد الله دراز، ص (١٤٣).
(٢) الروض الأنف في شرح غريب السير، عبد الرحمن السهيلي، (٤/ ٧٧).
(٣) كتاب السير الكبير، محمَّد بن الحسن الشيباني، (١/ ٤٣١).
(٤) راجع في هذا الشأن كتاب: في فقه الحضارة العربية الإسلامية، طريق النهضة. لمؤلفه رفيق حبيب، دار الشروق، ط١، القاهرة.
(٥) تاريخ ابن خلدون، (١/ ٩).
(٦) تاريخ ابن خلدون، (١/ ٣٥).
(٧) التفسير الإسلاميُّ للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص (١٠٦).

أكثر من مرَّة عند سرده وعرضه للواقعة التاريخية إلى «تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة ونزوعنا المستقبليّ»(١).

الهدف من إيراد القصص والعروض التاريخية: إثارة الفكر البشري، ودفعه إلى التساؤل الدائم والدائب عن الحقّ، تقديم خلاصات التجارب البشرية عبَرَاً يسير على هديها أولوا الألباب؛ إزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان، وصقل ذاكرته وقدرته على المقاومة لكي تظلَّ في مقدمة قواه الفعَّالة التي هو بأمسِّ الحاجة إلى تفجير طاقاتها دوماً

د. عماد الدين خليل، باختصار

وبما أنَّ التاريخ يشكل سجِّلاً حافلاً، لأحداث الحياة الإنسانيَّة وتقلُّبها بأهلها، منه يأخذ الإنسان التجربة التي تُوقفه على أحوال الغابرين أفراداً ومجتمعين، فبه يرى الإنسان بعين بصيرته، كيف تعمل سُنَن الله تعالى في المجتمعات بلا محاباةٍ، وكيف تَرقى الأمم وتسقط، وكيف تنتصر الدعوات وتُهزم؛ فهو غزيرُ النفع، كثيرُ الفوائد، ومن لم يكن له نصيبٌ وافرٌ من تجارب الآخرين، فهو يبدأ من الطفولة البشرية، أي من نقطة الصفر.

يقول ابن الأثير رحمه الله: «ولقد رأيت جماعةً ممَّن يدَّعي المعرفة والدراية، ويظن بنفسه التبحُّر في العلم والرواية، يحتقر التواريخ ويزدريها ويعرض عنها ويلغيها، ظنّاً منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللبِّ نظره، وأصبح مخشلباً جوهره، ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مستقيماً، علم أن فوائدها كثيرةٌ ومنافعها الدنيوية والأخروية جمَّةٌ غزيرةٌ»(٢).

هناك نماذج للإفادة من تاريخنا، تعيننا على النهوض بأُمَّتنا من جديد، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، العديد من الألوان المميَّزة من الأنشطة الحضارية التي قدَّمتها حضارتنا الإسلامية، والوضع الراهن يتطلَّب بعثُها للارتقاء بأُمَّتنا. مِن ذلك تحويل المساجد الكبرى إلى جامعاتٍ، من خلال برامجَ منظَّمة تُشرف عليها الهيئات الرسميَّة المختصَّة، تماماً كما كان الحال في مسجد عمرو بن العاص، ومسجد القيروان، ومساجد فاس وغيرها، إذ كانت جامعاتٍ إسلاميةً تخرَّج فيها علماءُ كبار أفادت منهم الأمَّة.

كذلك فكرة التنمية والحفاظ على الموارد للأجيال القادمة، هذه الفكرة التي اهتمَّ بها المسلمون، يُمكن إعادةُ إحيائها بطريقةٍ علميَّة، وفي ظلِّ فقه النصِّ وفقه الواقع المعاصر وافتقار الأمَّة إلى تحقيق التنمية المستدامة، تبدو أهمية العودة إلى نظام الوقف مع مراعاة المتغيِّرات الحاصلة من حوله، والتي يمكن له الاستفادة من منافعها وتجنُّب مثالبها. إذ من توفيق الله لهذه الأمَّة أن حباها مولاها بنظام الوقف، في الوقت الذي لم يكن معروفاً في الشرائع السابقة، والذي يملك القابلية المطلقة للاستثمار، بحكم أنه يشكِّل وعاءً مالياً قابلاً للاتساع، وكذا دوراً لافتاً في خدمة جهات النفع العام.

موقفنا من الصفحات التي فقدت ضياءها في تاريخنا:

أخفى أعداء الإسلام الجوانب التي تُغطِّي مُعظم مساحة الإشراق والعظمة في تاريخنا الإسلاميِّ، أفراداً وحكوماتٍ وطبقاتٍ منسجمةٍ متوازنةٍ متكاملةٍ. حاولوا تضخيم خلافات المسلمين مع بعضهم، حتى لكأنَّهم كانوا ينتظرون منهم أن يكونوا ملائكةً، أو قوماً يُحرَّم عليهم إبداء وجهة نظرهم في مواقف، رأى آحادهم أن الصواب بجانبه وله مسوغات اتّكأ عليها.

وإنَّ التجربة الحضارية الإسلامية في التاريخ، لهي أقوى من أن تشوِّه روعتها بعض الأتربة العابرة، أو أن تتأثر بأيِّ تلوثٍ في وسطٍ من دخان الشبهات؛ ومن خلف الضباب استطاع الإسلام دوماً أن ينفذ بأشعته مضيئاً بنثارات نوره للعالمين.

والذي يتوجَّه إلى دراسة نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة، يلحظ كيف أن تسليط الضوء على أخبار بعض الخلفاء وحاشيتهم وقصورهم، أوجد حاجزاً وحجاباً بينها وبين أحداثٍ لافتةٍ كبيرةٍ، من مثل فتح قتيبة بن مسلم لبخارى وسمرقند، وكذا امتداد السيادة الإسلامية على آسيا الوسطى، وأيضاً استكمال الفتح الإسلاميِّ لشمالي أفريقيا، ثم فتح الأندلس!

(١) المرجع السابق، ص (٩٧).

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، (١/ ٩).



وفي ثنايا الدراسة، يصاب صاحبها بصدمةٍ، لما تعرضت له حقبة بني أمية، من طمس لإشراقاتٍ نيِّرةٍ، ومعالم حضارية! فتطفو على السطح، مغامرات بعض الخلفاء والقادة العسكريين، والتي تفتقر للتحقيق العلميِّ الرصين، بينما يتمُّ التعامي عن أعمالٍ عظيمةٍ قلبت الموازين، وغيَّرت مجرى التاريخ، مثل فتح [نربونة] بجنوبي فرنسا سنة ١٠٠هـ- ٧١٩م، ثم إنَّ مجداً أثيلاً مثل وضع يد السلطان الإسلاميِّ على كامل جنوب فرنسا، لمدة ربع قرن، يندثر تماماً! لكي يتمَّ التعريف فقط بمعركة [بلاط الشهداء]، التي تقابَل فيها [عبد الرحمن الغافقي] مع [شارل مارتال]، بسهول مدينة [بواتيه] في قلب فرنسا سنة ١١٤هـ- ٧٣٢م، كما تندثر مناقب الدولة الأموية في دفع حركة التاريخ والحضارة، لتنقل لنا كتب الرواة أخبار الشاعر عمر بن أبي ربيعة، والوصلات الغنائية لمعبد، والغريض، وابن سريج، وابن عائشة، والأبجر.

وفي حال ولجنا باب الدولة العباسية منذ قيامها سنة ١٣٢هـ-٧٥٠م، فسيصيبنا الذهول لتزاحم أخبار الصراع بين فئام المجتمع، وكأنما توحي إلينا كتب الأدب والتاريخ، بأن حضارة الإسلام تفرَّدت بهذه الظاهرة البشرية، دون سواها من الحضارات، بينما تشير وقائع الماضي الإنسانيِّ منذ بزوغ فجر التاريخ، إلى أن هذه سنَّة الله في خلقه، وهذه هي الواقعية بعينها بعيداً عن عالم المثاليات المجنَّحة وأدبيات الطوباوية المفرطة[1].

في الفترة الأخيرة بدأ الهجوم على التاريخ الإسلاميِّ متخفيّاً داخل رداء أسلوب الفكر العلميِّ، القائم على البحث وأسس التحليل والنقد. ومع أن هؤلاء المستشرقين، ومن يساندهم قد ادَّعوا أنهم طالعوا التاريخ الإسلاميَّ والعلوم والفنون الإسلامية، مطالعةً قائمةً على الحيادية والإنصاف بتجرُّدٍ وإخلاصٍ وأمانةٍ، إلا أنَّ الحقَّ أنهم لم ينصفوا حتى الآن التاريخ الإسلاميَّ!

ولن يأخذ بنا التعصُّب لتاريخنا بعيداً، فننكر أن ثمَّة أخطاءً ونقاطٍ سوداء قد اعترت بعض صفحاته، ولكن حتى هذه الأخطاء يُمكن أن تُدرَّس، وتُستفاد منها العِبرُ، كيما تتكرَّر بعد ذلك، فتاريخنا يخصُّنا بإيجابيَّاته وسلبيَّاته، وقد آنَ لنا أن نكتبَه نحن بأقلامٍ علميةٍ وموضوعيةٍ، وأن نتعرَّف على الجوانب المُشرقة فيه.

> في الفترة الأخيرة بدأ الهجوم على التاريخ الإسلاميِّ متخفيّاً داخل رداء أسلوب الفكر العلميِّ، القائم على البحث وأسس التحليل والنقد

يجب الاحتياط دائماً فيما يتعلق باختلاف الصحابة، فهم ليسوا بمعصومين، ولا يوجد لديهم، وخاصَّة أكابر الصحابة، سوء نيَّةٍ أو انطواء على خبثٍ، لهذا فما قاموا به، قاموا به مجتهدين، فلو تذكرنا الأهداف والمقاصد فيما يتعلق باختلافاتهم، فإننا حينها ينبغي أن نفهم تعليقات الرواة وكتَّاب الأخبار، ويجب ألا نقبلها طالما لا توجد لها شواهد تاريخية مؤكَّدة.

وينبغي ألا نقبل بعيونٍ مغلقةٍ ما يذكره أصحاب الأخبار أو النقلة، إلا بعد دراسةٍ وتمحيصٍ

(١) وأصحاب هذه الكتب عملوا جاهدين على تزييف الحقائق، وبضاعتهم في المعرفة والتحقيق العلميّ مزجاةٌ، وكذا اعتمدوا على مراجع واهنةٍ واهيةٍ، من مثل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، والذي وضعه صاحبه للملوك والخلفاء، لشغل فراغهم بقصص ذوي الأهواء، وأهل الفنِّ، ولغرض تشويه العقيدة وأخبار التاريخ عند كل قاصدٍ لقراءته والنظر فيه.

وموازنةٍ وترجيح، لأنهم عادةً ما يذكرون آراءهم الذاتية المبنيَّة على معلوماتهم، وكثيراً ما تكون معلوماتهم عن شخصٍ ما أو طبقةٍ ما أو إدارةٍ ما ناقصةً، وهكذا يكون تعليقهم بالضرورة غير مكتملٍ وغير واقعيٍّ.

ينبغي ألا نقبل بعيونٍ مغلقةٍ ما يذكره أصحاب الأخبار أو النَّقَلة، إلا بعد دراسةٍ وتمحيصٍ وموازنةٍ وترجيحٍ

إذن من الخطأ بمكان قراءة التاريخ الإسلاميِّ بنظرة ماديةٍ مجرَّدةٍ، لأن ذلك يؤول إلى تفريغ صور ومعالم، حضارية في معانيها الإنسانية والإيمانية، وهذا ما رنت إليه أنظار خصومنا الذين تناولوا تاريخنا، والإنصاف يقتضي أن نذكر الجوانب الإيجابية إلى جوار نقيضتها السلبية؛ وإذا بلغ الماء قلَّتين لم يحمل الخبيث، والذي يهمُّنا هو سلوك ومواقف مجاميع الأمَّة التي تقاس بهم الحضارات، وليس آحادها الذين يعبث بعضهم بمقدَّرات الأمَّة ولا يصنعون تاريخها.

ثم يتعيَّن علينا أن نعرف مكاننا في خطِّ سير التاريخ، وأن نتبين قيمتنا في العالم الإنسانيِّ، من خلال ما تكتبه الأقلام النزيهة التي تنشد الحقيقة، والحقيقة فحسب.

ومسؤولية الباحثين في التاريخ، الشرعية منها والأدبية، تفرض عليهم إعادة كتابة التاريخ الإسلاميِّ من زاوية رؤيةٍ أكمل، وأدق، وأعمق، حتى ننأى بأنفسنا عن النظر إلى ذواتنا بعدسةٍ صنعتها أيادٍ غريبةٌ عنا، أجنبيةٌ عن عقيدتنا وتاريخنا، وعن إحساسنا بالحياة وتقديرنا للأشياء.

وحتى على فرضية تجرُّد الأيدي الغريبة التي تكتب لنا تاريخنا من الخصومة والهوى، فإنَّ أخطاء المنهج الذي تتبعه، كفيلةٌ بأن تشوِّه الحقائق التاريخية، وتحرفها عن واقعها الذي عايشته.

واجبنا نحو التاريخ:

إزاء ما تقدَّم بيانه، فإنه لا ينبغي قبول أيَّة كتابات مهما كانت، دون نقدٍ أو تحليلٍ. ولكن ثمَّة معضلةٌ تعترض كلَّ راغب بقراءة التاريخ، وعلى وجه الخصوص فئة الشباب، لا يجدون أمامهم إلا كتب الموسوعات الكبيرة، والتي من الصعب على أمثالهم الرجوع إليها، أو الكتب المعاصرة وفيها من التشويه الشيء الكثير، وبذلك عظمت التبعة على المسلمين، وبدأ المخلصون من المفكّرين المسلمين وذوي الاختصاص بمادة التاريخ، بكتابة دراساتٍ حول فتراتٍ زمنيةٍ محدَّدةٍ وأحداثٍ تاريخية أثارت الجدل في أوساط المثقفين.

ولو أنَّ المسلمين في هذا العصر، بعد أن خبروا الصحيح من السقيم من أخبار التاريخ، استوعبوا دروس الماضي، لما أخطأوا في التعامل مع الكثير من الأحداث التي أحاطت بهم، والذي خَبِر تقلبات الدول والمجتمعات وقرأ عن المؤامرات السياسية، يكون أقدر على تفهم الواقع الراهن الآن، لما فيه شبَهٌ كبيرٌ لأحداث الماضي. قال ابن الأثير رحمه الله:« إنه لا يحدث أمرٌ إلا قد تقدَّم هو أو نظيره، فيزداد الإنسان بذلك عقلاً، ويصبح لأن يقتدي به أهلاً»[(١)].

يتساءل المفكِّر المعاصر، محمَّد الغزالي بمزيدٍ من الأسى: «فما مكانة الحسن بن الهيثم في تاريخنا؟ وما مكانة غيره من علماء الحياة والكون كجابر بن حيَّان والخوارزميِّ؟ إننا قبل أعدائنا كنَّا أسرع إلى إهالة التراب عليهم؛ ربما ظفر بالشهرة أبو نواس قديماً، وعبد الحليم حافظ حديثاً، أمَّا الراسخون في العلم فهم يسيرون إلى جوانب الجدران، وينسحبون من الحياة كما جاءوها على استحياء أو في استخفاء»[(٢)].

ومن هنا يتعيَّن على الدعاة والمربين أن يتنبهوا لمثل ما تنبَّه إليه أجدادنا من سلفنا الصالح. يقول إسماعيل بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «كان أبي يعلمنا المغازي والسرايا، ويقول: يا بنيَّ إنها شرف آبائكم فلا تضيِّعوا ذكرها»[(٣)].

وهكذا نخلُص إلى أنَّ في التاريخ فكرةٌ ومنهاجٌ، وكلُّ أمَّةٍ تصوغ تاريخها، بحيث يؤدي مهمةً تربويةً في حياتها، ومن صفحات التاريخ، وُجِد التراث الهائل من القيَم والأخلاق.

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير الجزري، (١/ ١٠).
(٢) الطريق من هنا، محمَّد الغزالي، ص (١٦).
(٣) سيدنا محمَّد ﷺ، محمَّد رشيد رضا، (١/ ٢٤٢).



تزكية

البناء الذهني في قصة آدم عليه السلام

أ. محمد أمجد عبد الرزاق بيات (*)

للقصص تأثيرٌ قويٌّ في النفوس والعقول، وهو شعبةٌ جليلةٌ من شُعَب القرآن الكريم، وقد قصَّ علينا القرآن قصَّة آدم عليه السلام وفصَّل أحداثها وأبرز وقائعها، لأنَّها تشكّل أساس البناء الذهني والفكري الذي يضبط حركة التفكير ويحمي العقل ويعصمه من الضلال والتيه، ويزوّده بمعايير وقواعد النقد والتفكير الصحيح.

دعا القرآن الكريم الناسَ كافّةً إلى قراءة قصصه والاستفادة منها بقوله: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦] ولخطورة القصص في التكوين الذهني والمعرفي نجد أن القرآن قد أفرد لها مساحة واسعة قاربت الثلث منه. فللقصص القرآني أثر كبير في تكوين الشخصيَّة المسلمة القادرة على التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ، وإدراك أبعاد الأحداث وتقرير الحقائق والسنن.

ويظهر أثر القصص القرآنيّ في تكوين الشخصيَّة المسلمة القادرة على التمييز بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ، والصواب والخطأ، وإدراك أبعاد الأحداث وتقرير الحقائق والسُّنن، ولذلك اهتمَّ القرآن الكريم بها اهتمامًا بالغًا وأفرد لها مساحةً واسعة بلغت مقدار الثلث منه.

إنَّ من أهم أهداف القرآن وهو يُحدِّث الناس بقصص الماضين وأخبار الأوَّلين تحريرَ عقولهم من أوهام الأساطير المنسوجة وتحريف الكتب المنقولة، وبناء وعيهم بناءً سليمًا بالمعلومة الصَّحيحة الثابتة؛ فإنَّ الإنسان إذا أدرك الماضي مُشوَّهًا وأحداثه محرَّفةً؛ اختلَّ بناءُ ذهنه واضطربت موازين فهمه، ومن هنا فإن القرآن نزل ليؤكد للناس أنَّه المصدر الذي يمكن الاطمئنان إلى صحَّة معلوماته ودقّة أخباره، يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران:٦٢]، ويقول كذلك: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف:١١١]. لأن الثقة في المصدر تجعلك

(*) ماجستير في الفقه، باحث شرعي ومدرس.

في ثقة مما تقرأ وتخرجك من معضلة التحرِّي والثبوت، وتَفصِلُ لك ما بين الأسطورة والحقيقة، بخلاف المصادر المشكوك فيها كنسخ التوراة والإنجيل، إذ لا يمكن الوثوق بما فيها ولا اعتماد سردها للقصص التي أدخل فيها وحذف منها وتعرضت أحداثها للتشويه ووقائعها للتحريف.

> **من أهم أهداف القرآن وهو يُحدِّث الناس بقصص الماضين وأخبار الأوَّلين تحريرُ عقولهم من أوهام الأساطير المنسوجة وتحريف الكتب المنقولة، وبناء وعيهم بناءً سليمًا**

لقد أدرك ملأ قريش ما للقرآن من تأثير في النفوس، فسعوا للتشويش على رواياته وانتزاع الثقة بأخباره، فوصفوا قصصه بالأساطير، وانتدبوا النضر ابن الحارث يقصُّ على الناس أساطير فارس وحكايات مُلوكها ليصرف الناس عن القرآن وأخباره[١]! وقد تصدَّى القرآن لهذا التلبيس، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود:٤٩]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: لم يكن عندكَ ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها، حتى يقول مَن يُكذبكَ: إنك تعلَّمتَهَا منه، بل أخبركَ اللهُ بها مطابقةً لما كان عليه الأمر الصَّحيح»[٢].

البناء الذهني في قصَّة آدم عليه السَّلام:

نعود إلى قصص القرآن ودورها في البناء الذهني.
إنَّ مما يلفتُ الانتباه تكرار القرآن لبعض القصص، ومنها قصَّة خلق آدم -عليه السلام- ومكثه في الجنة وإغواء إبليس له، ثم نزوله الأرض هو وزوجه.. وكأنَّ القرآن يريد أن يخبرنا وهو يكرر هذه القصَّة في مناسبات عدَّة بأنَّ لها دورًا محوريًّا في حياة البشر، وأنَّ طمسها أو تحريفها والعبث بأحداثها سيؤدِّي إلى خللٍ عظيم في بنائهم الذهني، واضطرابهم وعجزهم عن إجابة أهمِّ الأسئلة الوجودية الملحَّة التي تفسِّر وجودهم على هذه الأرض.

إن قصَّة خلق آدم تمثل خريطة الوجود الإنساني وبوصلته التي بها يعرف بدايته ونهايته، وعلاقته بالوجود وموقعه في هذا العالم، وإنَّ طمس هذه الخارطة وتغييبها سيجعل الإنسان تائهًا لا يدري موقعه من هذه الحياة ولا أين المصير، ولو أنَّه أُعطي خارطةً مُزيَّفةً ومعلوماتٍ مزوَّرة عن أصل وجوده وبداية خلقه وطبيعة مَهمَّته، فلن يزداد إلا تيهًا؛ لأنَّ هذا التزوير سيُفقد الإنسان كينونته ومعنى وجوده، وسيلجأ إلى عقله ليبحث عن إجابة، أو سيتلقَّف ما يلقى إليه من شوارد الأفكار التي لا تستند لدليل وبرهان من نتاج العقول التائهة والأفهام الحائرة.

ولك أن تدرك أن كلَّ ما أنتجه البشر من نظريات وفلسفات وأساطير وخرافات منحرفة هو أثر من آثار فقدانهم لقصة الخلق الحقيقية، أو من جرَّاء تحريفها والعبث بمكوناتها، ودونك هذه الحضارة الحديثة التي فشلت نظريَّاتها أن تحلّ محلَّ خريطة الوجود في قصة الخلق التي جاءت في القرآن، بل أوصلت البشر إلى متاهةٍ يدورون فيها حول أنفسهم بلا نهاية دون أن يصلوا إلى إجابة مقنعة.

> **كلُّ ما أنتجه البشر من نظريات وفلسفات وأساطير وخرافات منحرفة هو أثر من آثار فقدانهم لقصة الخلق الحقيقية، أو من جرَّاء تحريفها والعبث بمكوناتها**

أما أثر طمس هذه القصة في حياة البشر ووعيهم، فدونك أبرزُ نظرية حاولت الإجابة عن سؤال النشأة والبداية وهي نظرية النشوء والتطور لدارون، ومع هذا فهي نظريَّة مليئة بالفجوات العلميَّة! يقول (آرثر كيث)[٣] وهو أحد أكثر المتحمِّسين لهذه النظرية: «إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميًّا ولا سبيل إلى إثباتها بالبراهين، ونحن نؤمنُ بها لأنَّ البديلَ الوحيد لها

(١) ذكر ابن هشام في سيرته (٣٠٠/١): أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش، وكان قد قدم الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسا فذكر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش، أحسنُ حديثًا منه، فهلمَّ إليَّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسبنديار، ثم يقول: بماذا محمدٌ أحسنُ حديثًا مني؟ اهـ.
(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٢٨/٤) ط/ دار طيبة.
(٣) السير آرثر كيث هو أحد علماء التشريح والأنثروبولوجيا، بريطاني الجنسية. كان رئيسًا للجمعية التشريحية من سنة ١٩١٨م إلى سنة ١٩٢٠م.

هو التسليم بوجود خالق والخلق المباشر، وهو ما لا يمكن حتى مجرَّد التفكير فيه»[١].

فالداروينية نظرية - أو قُل عقيدة - تهدف إلى إزالة الوحي من حياة البشر واستبدال المادة بالخالق، وأنَّ البديل عنها هو التسليم بوجود خالق لهذا الكون كما يقول آرثر كيث. فبقاء قصَّة الخلق كما جاءت في خريطة الوحي الإلهي يزعجهم كثيرًا؛ لأنها تنسف أوهام نظريتهم وتطيح بأصولها.

هذا أحد آثار طمس قصة خلق آدم في حياة البشر، وأما أثر العبث بأحداثها فكذلك أدَّى إلى اختلال في وعي طائفة عظيمة من بني البشر واضطراب بنائهم الذِّهني، وكان من أثره عقيدة النصارى في الصَّلب والفداء، فهذه العقيدة هي أثر من آثار ذلك التحريف، فعندهم أن آدم لما خالف أمر الله وارتكب معصية الأكل من الشجرة التي نهاه ربُّه عن الأكل منها واستجاب لوسوسة الشيطان؛ عاقبه الإله وأخرجه من الجنَّة وأنزله إلى الأرض، وبقيت خطيئة آدم بلا كفَّارة يتوارثها أولاده إلى أن أرسل الله ابنه يسوع -حسب معتقد النصارى- ليُصلب ويكفر عن البشر خطيئة أبيهم آدم!

فعقيدة الصَّلب والفداء عند النصارى هي أثر من آثار تحريف القصَّة[٢]، وقد حسم القرآن الكريم قضيَّة الخطيئة وأنَّ آدم -عليه السَّلام- تاب منها وقد قبل الله توبته وغفر ذنبه، قال سبحانه: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٥-٣٧]. وقال جلَّ جلاله في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:١٢١-١٢٢].

فأيُّ معنىً لأن يتوارث أبناءُ آدمَ خطيئتَه وقد تاب منها وقبل الله توبته، بل أيُّ عدلٍ وأي عقل في تحمُّل أبنائه خطيئةَ أبيهم ويتوارثوها، ولا تنتهي هذه المأساة إلا بإرسال الله ابنه الوحيد -كما يزعمون- ليكفر عن البشريَّة خطيئة أبيهم؟!

أرأيت إلى أثر التحريف كيف انتهى إلى سلسلة من الكفريَّات الشَّنيعة! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

عداوة الشيطان للإنسان:

إنَّ علاقة الشيطان بالإنسان قديمة قِدمَ خلق أبي البشر آدم -عليه السَّلام- وتاريخُها يبدأُ منذ أمر الله إبليسَ أن يسجدَ لآدم فأبى واستكبر، وأضمر الشرَّ وحقد، فجاء البيان الإلهي سريعًا ومحذِّرًا لآدم بقوله: ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ [طه: ١١٧].

> **جهل الإنسان بطبيعةِ العَلاقة بينه وبين الشَّيطان من أهم أسباب ضلاله وانحرافه**

وقد قصَّ - سبحانه - في سورة الأعراف ما دار بين إبليس وآدم وحوّاء وكيف أغوى الشيطان آدم، فقال تعالى: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢].

إنَّ أول مَعلم من معالم التوجيه الربَّاني في بناء وعي البشر على أنَّ الشيطان عدو له، وأنَّ جهل الإنسان بطبيعةِ العَلاقة بينه وبين الشَّيطان من أهم أسباب ضلاله وانحرافه فكرًا وسلوكًا وخلقًا، فقدْ أقسَم إبليس أنَّه سيَقعُد لابن آدَمَ في كلِّ طريقٍ من طُرُق الخَير ليَصدَّه عنها ويَمنعَه منها حتَّى يكُون معه في جهنَّم، لأجل هذا أمرَنا أن نتَّخذه عدوًّا، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]. فالانتِصار في هذه المعركة يعني: الخلود في جنَّات النَّعيم، أمَّا الهزيمة فإلى جهنَّم وبئس المصير.

إنَّ هدف الشيطان الأسمى أن يعبده بنو آدم من دون الله، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠]. وقد وصل الكفر ببعض البشر حدَّ أنْ عبد الشيطان حقيقةً، وهم المَعروفون بعبَدَةِ

---

(١) انظر: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ص٤٣.

(٢) الصلب والفداء عقيدة تشترك فيها جميع الطوائف النصرانية، انظر: عوض سمعان، رومية (١٢/٥-٢١)، حبيب جرجس «خلاصة الأصول الإيمانية»، أميمة الشاهين، «الخطيئة الأولى بين اليهودية والمسيحية والإسلام»، إبراهيم خليل أحمد، «الغفران بين الإسلام والمسيحية».



الشيطان والعياذ بالله تعالى، وما كان لإبليس وأعوانه أنْ يصلوا بهؤلاء إلى أن يعبدوه إلا بعد أن أضلَّهم عن حقيقة وجودهم وعلاقتهم بربِّهم، وزيَّن لهم أنَّه رمز التمرُّد على الإله الذي يستحق الاقتداء به، وبعد أن زيَّن لهم التمرد على شريعة الإله واستبدالها بشرائع صنعتها أهواؤهم.

ومن أخطر دعوات إبليس المعاصرة إغراء طوائف من بني آدم بالانقلاب على الفطرة التي فطرهم الله عليها، إن ما نشهده اليوم من إقرار قوانين الإباحية والمثليَّة والعبث بالخلقة وتغيير الجنس، وحق المثليين والشواذ، وتشريع زواج المرأة بالمرأة والرجل بالرجل، وتجريم من يرفض هذه القوانين أو ينتقدها، وقد كشف القرآن حقيقة هذه الخطَّة الإبليسيَّة على لسان إبليس نفسه: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء:٩٧] فكلُّ دعوة إلى تغيير الخلق الظاهر أو الفطرة السَّويَّة هي خطَّة إبليسيَّة ومكيدة شيطانيَّة.

لقد بنى القرآن الكريم وعي البشر وفضح دور الشيطان في حياتهم وطرق إغوائه لهم من خلال ما سجَّله في قصَّة الخلق التي كرَّرها مرارًا، فبيَّنَ تعالى أنَّ الشَّيطانَ يستعمل الحيلة ويتدرَّج في دعوة الإنسانَ، فقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وبيَّن الحقُّ - جلَّ وعلا - أنه يُسلِّط على المُعرِض عن شَريعةِ الله، الحائدِ عن الصِّراط المُستقيم، شَيطانًا قرينًا لا يُفارقه يأمُره بالمُنكر، ويَنهاه عن المعروف، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦].

إنَّ إبليس الرجيم جادٌّ في مقالته، ماضٍ في مشروعه ومخطَّطه، مصرٌّ في مَكره، ساعٍ في إغواء خلق الله سبحانه، وإبعادهم عن منهج الحق، يتحرَّى مواضع ضعفِهم، ومكامن غفلتهم.

الاستخلاف على الأرض:

ومن صور البناء الذهني الواردة في قصَّة الخلق وتشكيل الوعي البشري: ذلك البيانُ الذي انفرد به القرآن، وهو الإشارة إلى الفترة الزمنيَّة ما بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبداية نزوله ومسيرته على هذه الأرض. ولعلَّنا لا نكون مبالغين إذا قلنا إن هذه الفترة تعدُّ فجوة في كل العقائد والفلسفات والحضارات والديانات. وأنَّ هذه الفجوة إذا تأمَّلتها وجدت أنَّها تاريخ العالم كله، وهي كلُّ مشاكله، وكل عقائده، وكل فلسفاته، وكل إيمانه، وكل إلحاده!

> من أخطر دعوات إبليس المعاصرة إغراء طوائف من بني آدم بالانقلاب على الفطرة التي فطرهم الله عليها

أهم ثمرات البناء الذهني في قصة آدم عليه السلام

١ القصة الحقيقية للنشأة البشرية

٢ المقصد الإلهي الحق لخلق الإنسان

٣ المعنى الصحيح لخلافة الإنسان على الأرض

٤ عداوة الشيطان وكيده ومكره بالإنسان

٥ الدنيا محطّة ودار عبور والآخرة هي المنتهى والمستقر

> **الأخذ بمنهج الإله والعمل بمقتضاه ضمانٌ يحقق به الإنسانُ التوافق مع نفسه ومع الكون من حوله، وإلا فقد السيطرة على ذاته، وحُرِم الانسجام مع عالَمه**

وقد جاء بيانها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]. فالخلافة هي المقصد الذي خلق الإنسان لأجله وهي الحكمة في نزوله الأرض وهي المهمّة التي سيمتحن بها على هذه الأرض، وهي معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، لأنَّ الخلافة هي العبادة بمفهومها الواسع التي يريدها الله؛ أنْ نسير وفق شريعته ومنهاجه الذي به نفهمُ وجودنا ونصوغ حياتنا ونكوّن قيمنا وأخلاقنا ونضبط سلوكنا ونشاطنا. وبعبارة أخرى فإن الخلافة عقدٌ بين الإله وبين الإنسان «قائمٌ على تلقي الهُدى من الله، والتقيُّد بمنهجه في الحياة. ومفرقُ الطريق فيه: أن يسمعَ الإنسانُ ويطيع لما يتلقاه من الله، أو أن يسمع ويطيع لما يمليه عليه الشيطان. وليس هناك طريق ثالث»[1]. وقد تكفَّل الله لمن عمل بهدي الإله ألا يضلَّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وحتى يتمكّن البشر من أداء هذه المهمّة فقد منحهم اللهُ سلطانًا على هذا الوجود وقدرةً على إدارته، بشرط أن ألا يخرجَ على إرادة المُستخلِف وعَقدِ الخلافة. فالأخذ بمنهج الإله والعمل بمقتضاه ضمانٌ يحقق به الإنسانُ التوافق مع نفسه ومع الكون من حوله، وإلا فقد السيطرة على ذاته، وحُرِم الانسجام مع عالَمه، وترتَّب على ذلك فسادٌ في نظام حياته وخللٌ في العالم من حوله، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

إنَّ السَّاعةَ لا تقومُ إلا بعد أن تصل مهمَّة الخلافة على الأرض إلى نهايتها، فيرسل الله ريحًا تقبض أرواح المؤمنين، ولا تقوم السَّاعة إلا على شرار الخلق كما جاء في الأحاديث.

إنَّ قصة خلق أبي البشر آدم -عليه السلام- مليئةٌ بالفوائد والمعاني، وهي قصةٌ بديعة لا شبيه لها، وفيها إشارة واضحة لذوي النُّهَى إلى أن صلاح الخلق وانتظام أمر عيشه، واستقامة أحواله، واستتباب أمنه وسلمه، كله مشروط بالعلم النافع وهو البناء الذهني الصَّحيح، فما قصَّ اللهُ علينا صفة توبتهما إلا لنقتدي بهما فنفوز بالسعادة، وننجو من الهلكة؛ وأنَّ صلاح الإنسان ونهضة البشر وانتظام أحوالهم إنما يكون بالعلم المبني على الوعي الصَّحيح، بالمبدأ والمعاد وطبيعة المهمَّة التي نعيش لأجلها على هذه الأرض، وامتحاننا بالشيطان وجنوده الذي توعَّدَنا وعزم على إغوائنا بكل وسيلة لنستعدَّ لهذا العدو ونقاومَه ونتجنَّب طُرقه وخطواته.

(١) الظلال، سيد قطب (٦١/١).

دعوة



منهج الحوار في قصة إبراهيم عليه السلام

أ. عبد الرزاق ميزه نازي(*)

لطريقة دعوة الناس دور مهم في التأثير في المدعوّين، وأثر في قبولهم للدعوة أو رفضها، ومن أهم وسائل الدعوة المؤثّرة: حوارُهم ونقاشُهم فيما يريد الشخصُ إيصالَه من أمور، أو لفتُ نظرهم إلى ما هم فيه من مخالفات؛ لذا فقد نقلَ إلينا القرآن الكريم لوحاتٍ من حوار الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم؛ لنستفيد منها ونتعلّم، ومن تلك الحوارت: حوارتُ الخليلِ إبراهيم عليه السلام.

مدخل:

أرسل اللهُ نبيَّه إبراهيم عليه السلام إلى قومه في بلاد العراق، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وحذّرهم من عبادة الأصنام والكواكب والنجوم التي كانت شائعةً بينهم، لكنهم كذّبوه ولم يستجيبوا له، وعلى الرغم من ذلك فقد استمرَّ في تبليغ رسالته، مُستخدِمًا أساليبَ متنوعة؛ لإخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور الإيمان.

وقد برع عليه السلام في حوار قومه ومناقشتهم أثناء دعوته لهم، حتى كان أسلوبه محطَّ اهتمام الدعاة والمصلحين والباحثين، وخاصة أنَّ الله تعالى أرشدنا إلى اتِّباع ملّته وطريقته وهديه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيم إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وفي هذا المقال سنتلمّس بعون الله وتوفيقه أهم **معالم منهج الحوار في قصة إبراهيم عليه السلام**، ونلقي الضوء على **مرتكزاته**، لما لها من أثرٍ جليلٍ في الوصول إلى الطريق القويم، ورضا رب العالمين.

تعريف المنهج والحوار:

تعريف المنهج:

يدل لفظ المنهج على الطريق والوضوح(١)، وقد ورد لفظ المنهج في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

(*) ماجستير في الفقه وأصوله، مدير مركز تاج لتعليم القرآن الكريم في الريحانية.

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس (٥/٣٣١).

منهج الحوار: الطريقة الواضحة المحدَّدة أثناء المحادثة والمناقشة بين الطرفين على قضية، بهدف الوصول إلى الحق.

قال القرطبي: «الشريعة ابتداء الطريق، والمنهاج الطريق المستمر»[١].

ويُقصد بالمنهج: الطريق الواضح، المبني على أصول ثابتة، وقواعدَ مستقرّة، وضوابط محدَّدة توصلُ إلى الغاية[٢].

تعريف الحوار:

يدلُّ لفظ الحوار على مُراجعة الكلام بين جهتين، أو طرفين أثناء المخاطبة[٣]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف:٣٤]، قال القرطبي: «أي يراجعه في الكلام ويجاوبه»[٤].

ويُقصد به: مناقشةٌ ومحادثةٌ بين طرفين[٥] على موضوعٍ، أو فكرةٍ، أو قضيةٍ للوصول إلى الحق[٦].

والمقصود بمنهج الحوار: الطريقة الواضحة المحدَّدة أثناء المحادثة والمناقشة بين الطرفين على قضية، بهدف الوصول إلى الحق.

الممهدات التي سلكها إبراهيم عليه السلام قبل الشروع في الحوار

مهَّد الخليل إبراهيم عليه السلام لحواره مع قومه بعدَّة مُمهِّدات تُيسِّر إيصال ما يُريد، وتُعينه على بلوغ أهدافه، وهي كما يلي:

١. سلامة القلب مع النية:

حوار الخلق ودعوتهم إلى الحق تحتاج إلى سلامة القلب، وحسن القصد، وإخلاص النية؛ كي تؤتي أُكلها، قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٤-٨٥]، فالقلب السليم هو: الذي سَلِمَ من الشرك والشك، وسلم من غش الخلق وحسدهم، ويلزم من سلامته الإخلاص، ومحبة الخير للخلق، لذلك نصح إبراهيم عليه السلام الخلق وبدأ بأبيه وقومه.

وهذا إرشادٌ من ربِّنا جلَّ وعلا للمحافظة على سلامة القلب، وحسن النية، كحال إبراهيم عليه السلام، فقد كان مخلصًا لله تعالى مسلمًا وجهه له ظاهرًا وباطنًا، قاصدًا تعبيد الناس لربهم، وإخراجهم من ظلام الكفر إلى نور الإسلام، محبًا الهداية والخير لهم، فلم يطلب جزاءً من أحد، أو رضًا من ملك عند حواره معهم، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

قال ابن كثير: «أَمَرَهُ الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعًا وقدرًا»[٧].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ونسكي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

٢. الرشد:

مقاومة الكفر والطغيان تحتاج إلى التهيئة، وتوطيد النفس على ما سيُواجهها من شبهات، ورفضٍ وصدٍّ وتكذيب وتبدلٍ لأحوال الناس، وربما التعرض للأذى المعنويِّ أو الجسدي.

من أجل هذا أعطى الله تعالى لسيدنا إبراهيم الرُّشد، تهيئةً له من أجل القضية والرسالة التي سيحملها، وألهمه الهُدى منذ صغره، حتى عرف الحقَّ من الباطل، ولا شكَّ أن هذا سيجعل موقفه أقوى في الحوار والمحاجّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إبراهيم رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ

لا بدَّ للمحاور من تهيئةٍ نفسية ومعنوية، يوطِّد بها نفسَه، وألا يتلبَّس بشيءٍ مما ينهاهم عنه، وأن يتعلَّم الحجَّة، ويسوقَ الأدلة العقلية والنقلية على صحة كلامه ومنطقه.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢١١/٦).
(٢) أبجديات البحث في العلوم الشرعية، فريد الأنصاري ص(٤٠).
(٣) لسان العرب، لابن منظور، (٢١٧/٤ - ٢٢٣).
(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤٠٣/١٠).
(٥) الطرفين: ربما شخصين أو أكثر أو فريقين أو شخص وفريق.
(٦) أسلوب الحوار من خلال سيرة مصعب بن عمير رضي الله عنه وتطبيقاته التربوية، عدنان بن سليمان الجابري، ص (٣٩)، والحوار الإسلامي المسيحي، بسام عجك، ص(٢٠).
(٧) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (٤٤٦/١).

﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥١-٥٢].

فالمُحاور لا بدَّ له من تهيئةٍ نفسية ومعنوية، يوطِّد بها نفسَه، وألا يتلبَّس بشيءٍ مما ينهاهم عنه، وأن يتعلَّم الحجَّة، ويسوقَ الأدلة العقلية والنقلية على صحة كلامه ومنطقه قبل أن يشرع في الحوار.

٣. العلم:

قبل الشروع في الحوار يحتاج الداعية إلى العِلم؛ ليكون على بينةٍ فيما يدعو الناس إليه، وإلا دعاهم إلى الضلالة، وهذا من المعاني في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقد تمكَّن إبراهيم عليه السلام بعلمه وفهمه وإدراكه لحال أبيه وقومه أن يُقيم عليهم الحجَّة، ويبيِّن لهم بالبراهين ما هم فيه من ضلال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبراهيم عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

٤. التقديم بالأسئلة:

انتقل الخليل إبراهيم عليه السلام -بعد أن حقَّق العلم والفهم- إلى الاستفسار والسؤال، مقدمةً قبل الدخول في الحوار، ولهذا الأسلوب فوائد عدَّة منها: استطلاع ما عند الطرف الآخر حتى يتهيأ للجواب المناسب، ومنها التمهيد قبل الولوج مباشرة إلى صُلب الحوار، ومنها إظهار ضعف حجة الخصم من خلال جوابه، ومنها التركيز في الحوار حتى لا يتشعب.

وهنا لفتة جميلة في الحوار؛ أنَّ بعض المحاورين يهجُمون على الطرف المقابل مباشرة من دون معرفة طبيعته أو المنطلق الذي ينطلق منه، فيقعون بحرجٍ وأخطاء، فلا يصلون إلى غايتهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

قال ابن عاشور: «وهذا من تجاهُل العارف، استعمله تمهيدًا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم فهم يظنُّونه سائلًا مستعلِمًا، ولذلك أجابوا سؤاله بقولهم: وجدنا آباءنا لها عابدين، فإنَّ شأن السؤال بكلمة (ما) أنَّه لطلب شرح ماهية المسؤول عنه.

والإشارة إلى التماثيل لزيادة كشف معناها الدالِّ على انحطاطها عن رتبة الألوهية، والتعبير عنها بالتماثيل يسلب عنها الاستقلال»[1].

المرتكزات المنهجية لإبراهيم عليه السلام أثناء الحوار

اعتمد إبراهيم عليه السلام مرتكزات منهجية أثناء حواره لقومه، وهي:

١. التلطف أثناء الحوار:

والمقصود بالتلطف في الحوار: ألا يستعمل الشخصُ من الكلام إلا الحَسَن، ولو قابله الآخر بالإساءة والغلظة، وأن يكون رفيقًا ليِّنًا في حواره معه، بهدف إقناعه والوصول إلى قلبه وعقله بعيدًا عن الرفض المرتبط بالشدَّة والدفاع عن النفس.

وقد بيَّن القرآن الكريم هذه الصفة في حوار إبراهيم عليه السلام مع أبيه، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۝ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٢،٤٣].

قال الزمخشري: «انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطًا فيه من الخطأ العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، كيف رتَّب الكلام معه في أحسن اتِّساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللطف والرفق واللين والأدب الجميل والخلق الحسن»[2].

٢. التركيز على القضايا الفاصلة والهامة:

تركيز إبراهيم عليه السلام كان واضحًا على القضايا الكبرى؛ وعلى رأسها إفراد الله جل وعلا بالعبادة التي من أجلها خلق الإنسان، وقضايا الإيمان؛ وخاصة يوم القيامة التي سيحاسَب فيه الناس.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إبراهيم لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

المحاور الذي يصرف وقته على الجزئيات لن يُثمر حواره، ولن يصل إلى غايته، وسيُخرجه خصمه من الأمور الرئيسة الهامَّة إلى التيه في

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٩٤/١٧).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، (١٩/٣).

المرتكزات المنهجية لإبراهيم عليه السلام أثناء الحوار



الفرعيات، وضياع الوقت والجهد، ثم الانصراف عن أساس الدعوة.

فالجزئيات والفرعيات كثيرة لا تنتهي، والمحاور الذي يصرف وقته على الجزئيات لن يُثمر حواره، ولن يصل إلى غايته، وسيُخرجه خصمه من الأمور الرئيسة الهامَّة إلى التيه في الفرعيات، وضياع الوقت والجهد، ثم الانصراف عن أساس الدعوة.

٣.التركيز على المفهوم لا المثال:

نجد هذا في حوار إبراهيم عليه السلام مع النمرود، حيث أراد أن يُثبت كذب ادعاء النمرود للربوبية، وأنَّ الله هو الربُّ لا ربَّ سواه، فضرب له مَثَلَ الإحياء والإماتة، فلما أراد أن يُجادله فيه انتقل إلى غيره مما لا يملك أن يُجادل فيه، وهو إخراجُ الشمس من المشرق، مع أنَّ جداله في الإحياء والإماتة مُتهافت، لكن لمّا كان من الممكن أن يَصل إلى مُراده بما لا يستطيع أن يشاغب عليه خصمه انتقل إليه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إبراهيم فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إبراهيم فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٤. الوضوح في الطرح:

خاطب إبراهيم عليه السلام أباه وقومه بطريقة واضحة لا لبس فيها، على أنَّ عبادتهم متهافتة، ومعبوداتهم ضعيفة لا تستحق العبادة، دون مجاملة ولا تزييف ولا مداهنة، فقال لهم: ما هذه التماثيل التي مثلتموها، ونَحَتُّموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ثم أنتم مقيمون على عبادتها؟ وأي فضيلةٍ ثبتت لها؟ وأين عقولكم، التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ فهذا من أكبر العجائب أنكم تعبدون ما تنحتون[١]، قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٥-٩٦].

٥. التدرج في الحوار:

تدرَّج إبراهيم عليه السلام في حواره لكي يصل إلى غايته وهدفه الذي رسمه، بدأ بالاستفسار، ثم بيَّن لهم حقيقة ما يعبُدون من دون الله، وبعد ذلك أراد أن يُبرهن لهم عمليا على عجز الأصنام التي عبدوها من دون الله، ليصلوا إلى دليل الوحدانية.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص(٥٢٥).

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٠-٧٣].

٦. إعطاء الفرصة للطرف الآخر في الحوار ليعبّر عن رأيه:

في جميع المشاهد الحوارية كان إبراهيم عليه السلام طارحًا لعقيدته ومنهجه، مستمعًا وطالبًا لإجابتهم ودفاعهم عن عقيدتهم، محاوراً مناقشاً لهم في تلك الإجابة، مبيناً لهم زيف عقيدتهم وبطلانها، فالمحاور الذي لا يستمع أكثر مما يتكلم، سيُشعر الطرف الثاني بالغبن وعدم العدل، وقد يدفعه ذلك لادعاء أنَّه لم يأخذ حقه في عرض وجهة نظره أو دفاعه عن نفسه، ومن ثم قد لا يكون لحواره قبول عنده، قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠-٧٤].

٧. التنزُّل في الحوار مع الخصم:

لما كان قوم إبراهيم عليه السلام يعبدون الأصنام والكواكب، أراد أن يُرشدهم إلى التوحيد عن طريق النظر والاستدلال وإعمال العقل في ملكوت الله، فأرشدهم إلى التفكير فيما يشابهم فكرهم وثقافتهم الدينية، منبهاً لهم خطئها، وقد اتخذ طريقة إظهار مسايرتهم في اعتقادهم ثم نقض هذا المعتقد من داخله بإظهار تناقضه وضعفه وتهافته، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: ستره بظلامه، ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ قيل الزهرة، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ قال لقومه على سبيل التنزُّل إلى قول الخصم: هذا ربي، وإن كان هذا القول فاسدًا، فإنَّ المستدلَّ على فساد قولٍ يحكيه على ما يقوله الخصم، ثم يُبيِّن له الفسادَ الذي هو فيه، وهذا الأسلوب أقرب إلى استيعاب الخصم ورجوعه، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب، ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فضلًا عن عبادتهم فإنَّ التغيُّر بالاستتار والانتقال يقتضي الإمكان والحدوث وهذا ينافي الألوهية[1]. ثم استمرَّ في بيان منافاة استحقاق بقية الكواكب للألوهية لذات الأسباب، إلى أن وصل بهم إلى النتيجة: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّه لما انتفى استحقاق الألوهية عن أعظم الكواكب التي عبدوها فقد انتفى عما دونها بالأحرى.

الاستدلال على فساد القولِ بحكايته على ما يقوله الخصم ثم بيانِ فساده ومخالفته للمنطق والحجج والبراهين أقرب إلى استيعاب الخصم ورجوعه

فالمحاور لا حرج عليه أن يرخي العنان للخصم ليصل به إلى قبول الحجة، ولا ينفر من أول وهلة.

٨. الثبات على الحق والثقة فيه:

أعلنَ إبراهيم عليه السلام براءته من الأصنام التي يعبدونها، وعداوته لها، دون تحفظ ولا تردُّد: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧].

وقال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨- ٧٩].

وهذا إرشاد لمن تصدَّر الحوار أن يكون الثبات على الحق والثقة فيه حاضرة في جميع مراحله.

٩. الارتكاز والاستناد إلى الدليل:

ركّز إبراهيم عليه الصلاة والسلام في حواره على ثلاثة أدلة:

دليل الفطرة: فطر الله الناس على دين التوحيد والتوجه بالعبادة إلى الخالق جل وعلا، ومحبة الخير وكراهة الشر، لذا استند إبراهيم عليه السلام إلى هذه الفطرة في حواره مع قومه لإعادتهم وتذكيرهم بالفطرة السليمة على وجود الله وعبادته ونبذ عبادة الأصنام والكواكب، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨١].

ففي هذه الآيات تنبيه ولفت الأنظار من إبراهيم عليه السلام إلى الخالق والرازق والشافي، وهي لفتات تُحرك الشعور وتُعيد الإنسان إلى فطرته الأصيلة.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور، (٣١٧/٧).

دليل العقل: انطلق إبراهيم عليه السلام في حواره مع قومه من الدليل العقلي، واستخدم الحجج العقلية في نقض بنيان عقائدهم الباطلة، فالأوثان التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر لا تستحق العبادة لعجزها وافتقارها لمن يرعاها، وذلك يُعرف بالعقل والمنطق، فكيف تعبدونها؟ وتتركون عبادة الله الذي خلقها ودبَّر شؤون الخلق جميعاً؟!

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبراهيم ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء:٦٩-٧٣].

دليل الحس: حطَّم إبراهيم عليه السلام الأصنام إلا صنمًا كبيرًا نَسَبَ إليه تحطيم الأصنام، وطالب قومَه بأن يسألوا الأصنام عمن قام بهذا العمل، ليُثبت لهم حسيا، أنَّ ما يعبدون من دون الله لا يستطيعون الكلام ولا الدفاع عن أنفسهم، لا يستحقون التقديس والعبادة، لأنهم عاجزين بالفعل عن الانتصار لأنفسهم، فكيف سينتصرون لغيرهم؟!

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

والمُحاور القوي هو الذي ينطلق في حواره بالاعتماد على الأدلة والبراهين التي تُثبت دعواه، فيرتكز عليها وتكون سندًا له.

١٠. استدراج الخصم لإظهار تهافت دليله:

هذا ما رأيناه من إبراهيم عليه السلام يوم ذهب قومه إلى مجتمعهم في يوم عيد لهم، فقام بكسر أصنامهم بفأس وترك عَظيمهم دون كسر، ولم يتعرَّض له بشيء، وعلق الفأس في عنقه لعلهم إليه يرجعون ويرون ما فعل بغيره، فقالوا لإبراهيم:

> **ركَّز إبراهيم عليه الصلاة والسلام في استدلالاته أثناء حواره على ثلاثة أدلة:**
> **١. دليل الفطرة.**
> **٢. دليل العقل.**
> **٣. دليل الحس.**

> **عندما تكون الخصومة في سبيل الله ليست لمصالح شخصية، ولا أطماع مادية، يبقي حب الهداية في قلب الداعية حتى مع المفاصلة.**

أأنت فعلت هذا بآلهتنا؟ قال: بل عظيمهم هو من حطم تماثيلكم، واسألوهم إن كانوا يتكلمون! عندها عادوا إلى صوابهم، وقالوا لأنفسهم: أنتم الظالمون بعبادتكم من لا ينطق[١].

قال تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إبراهيم ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٤].

كما ظهر في استدراجه لهم في الحديث عن ألوهية الكواكب، مع النمرود في إثبات عدم استحقاقه بالعبودية.

١١. إقامة الحجة:

وهذا ما كان من إبراهيم عليه السلام في العديد من المواقف، فبعد أن حاور وعرض دعوته بطريقة هادئة، انتقل إلى إقامة الحجَّة عندما قوبل بالتكذيب والرفض، كما فعل مع الملك الطاغية في إقامة الحجّة عليه بعبوديته لله وضعفه، ووحدانية الله وعظمته وتفرده بتدبير هذا العالم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إبراهيم فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إبراهيم رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إبراهيم فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

١٢. المفاصلة مع الباطل عند وضوحه:

وقد لجأ إليها إبراهيم عليه السلام في نهاية حواره ومناظرته عندما ظهر له عدم قبول الحق والتمسك بالباطل، فأعلن المفاصلة مع الباطل والبراءة منه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٨-٧٩].

---

(١) {قال بل فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا} أسند الفعل إليه تجوّزا وتعريضًا لهم بأن الصنم المعلوم عجزه عن الفعل لا يكون إلها، وإنما هو متسبب لما حصل، والقصد تبكيتهم وإلزامهم الحجة وحملهم على ترك الوثنية، أو للاستهزاء بهم، ولهذا قال: {فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ {أي اسألوا هذه الأصنام عن الفاعل الذي كسرها إن كانوا يقدرون على النطق، وما روي في الصحيحين أنه صلّى الله عليه وسلم قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات» تسمية للمعاريض كذبا، لما شابهت صورتها صورته. ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (٣٤٩/٥)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (٣٠٠/١١).



وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبراهيم وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

منهج إبراهيم بعد الحوار

بعد أن انتهى الخليل عليه السلام من حواره مع قومه، عمل بما يمكن للداعية أن يعمل به بعد ظهور الرفض لدعوته، ومن ذلك:

١. الدعاء بالهداية:

وذلك لأنَّ الخصومة كانت في سبيل الله، ليست لمصالح شخصية، ولا أطماع مادية، فبقي حب الهداية في قلبه حتى مع المفاصلة، وقد خصَّ بذلك اباه لما له من قرابة ورحم، قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إبراهيم لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٦- ٤٧].

ومعنى قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: ستَسْلم من خطابي إياك بالشتم والسبِّ وبما تكره، ومعنى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، فلم يزل يستغفر إبراهيم لأبيه رجاء أن يهديه الله، فلمَّا تبين له أنَّه عدو لله، وأنه لا يفيد فيه شيئًا، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه[١].

٢. الصبر على الأذى الذي يقع بعد الحوار:

ينال الداعية في كثير من الأحيان الأذى بالقول أو الفعل، وخاصة إذا انقطعت حُجَّة الطرف الآخر، وهذا ما وقع لإبراهيم عليه السلام حينما انقطعت حُجَّة قومه، فقد أخذتهم العزة بالإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة، وقالوا حرِّقوه[٢].

قال تعالى: ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين (٦٨) قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [الأنبياء: ٦٨ - ٦٩].

فصبر على ذلك، وأوكل أمره لله تعالى ولجأ إليه، مفوضاً أمره إليه، فكان بعد العسر يسرًا، وبعد الصبر الفرج، والغلبة لأهل الحق في الدنيا والآخرة.

الخاتمة

إنَّ قصة إبراهيم عليه السلام مرجعٌ في الحوار، فمن أراد أن يتصدَّر هذا الفن فعليه أن يستعين بما ورد فيها من طرائق ومرتكزات؛ لكي ينجح ويصل إلى غايته في نقل الناس إلى الهداية والسلامة، ويكون على الطريق القويم.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص(٤٩٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (١١/ ٣٠٣).



التربية الهشة

د. ياسر بن مصطفى الشلبي (*)

بناء الشخصية الصالحة الثابتة الراسخة مطلبُ عامّة المربين، ويبذلون في سبيلها الكثير من الجهود والأوقات، إلا أنَّ ثمار هذه الجهود لا تؤتي أُكُلها مع كثرة ما بُذل؛ ومن أهمِّ أسباب ذلك أنَّ التربية كانت «هشّة»، فما هي هشاشة التربية؟ وما سُبُل تعميقها؟ هذا ما سُيسلّط المقالُ الضوءَ عليه.

تساؤلات تمهيدية:

نشأ في بيئةٍ مُحافظة وحرص أهلُهُ ومُعلّموه على تعويده السلوكَ الصحيح، وتعليمه الآداب الإسلامية، لكن ما إن وصل لمرحلة الرشد والاستقلالية إلا وبدأت ملامح التغيير تظهر عليه، ومع الأيام انتكس وانقلب على عقبيه، وبدأت صرخات الأهل والمربين: (أنقذونا ساعدونا - نحن لم نُقصِّر في تربيته وبذلنا ما في وسعنا - ابني ينساق وراء الشهوات والشبهات مع أنَّه كان حافظًا لكتاب الله - لم نحصد من وراء الإنترنت سوى ضياع أبنائنا - رُفقاء السوء دمّروا ابني ومستقبله - بدأ ابني يحمل الأفكار المنحرفة ...)، صدماتٌ مؤلمة وخيبة أَمَلٍ تلحق ببعضنا بعد أن فشلوا في الحفاظ على هويّة أبنائهم وتربيتهم، ومساعدتهم في الثبات على الصلاح، وهنا مجموعة من التساؤلات التي تُطرح عادة، نذكرُها لنُحاولَ من خلالها توصيف المشكلة ومعرفة مَكْمن الخلل، علّها أن توصلنا إلى جزءٍ من الحل.

- أين دور المؤسسات والبرامج التي تعتني بالنشء، وتُخرّج كل عام مئات الحفاظ ضمن محاضن تربوية مفعمة بالنشاطات الهادفة، وتُرصد لها الميزانيات الكبيرة؟
- ولماذا لم تنجح جهود العديد منها في حماية بعض هؤلاء المنتكسين والحفاظ على هويتهم؟
- وهل أخلينا مسؤوليتنا التربوية أمام الله وقمنا بالدور المطلوب منا فعلًا تجاه تربية الأبناء؟

(*) دكتوراه في التربية وعلم نفس الأسرة.

قد يتبادر إلى الذهن مباشرة أن أسباب تلك المشكلة تكمن بأننا نعيش في عالم مليء بالمخاطر التي تحيط بنا وبمن نقوم على تربيتهم، فنحن نواجه حربًا تستهدف أجيالنا، وتعمل على مسخ هويتهم وإخراجهم من دينهم، وأدوات التواصل الاجتماعي ومواقع الإنترنت غزت كل بيت وأصبحت تؤثر بشكل كبير على سلوكيات الأبناء وتوجهاتهم وأذواقهم، وأخيرًا اضطر الكثير منا للهجرة إلى ديار الشرق والغرب، وفيها ثقافات بعيدة كل البعد عن تعاليم الدين والأخلاق، ومن الطبيعي أن يتأثر بها الأبناء وليس لدينا القدرة على حمايتهم من الاختلاط بتلك الثقافات، كما أن الحروب الدائرة في ديار المسلمين أشغلتهم عن تربية أبناءهم واضطرتهم للعيش في مساكن ضيقة أو مشتركة لا تساعد على تربية الأبناء، وأصبح هم الواحد منا تحصيل لقمة العيش والبحث عن المكان الآمن للعيش.

إلا أنَّ تلك المبررات مع ما فيها من وجه صحة تُواجَه بمجموعةٍ أخرى من التساؤلات:

- أليست محاولاتُ إفساد الأجيال ومحاولةُ زعزعة القيم والثوابت وطرح الشبه والأفكار المنحرفة أمرٌ ممتدٌّ منذ أن بزغ فجرُ الإسلام كنوع من أنواع تدافُع الخير والشر الذي سوف يستمِرّ إلى قيام الساعَة؟
- إذا كنا نعيش في عصر مليء بالمخاطر، فهل خلت العصور السابقة من بعض تلك المخاطر؟ وكيف استطاع أسلافنا الحفاظ على هوية أجيالهم والتصدي لتلك التحديات؟
- كيف استطاع أعداؤنا التأثير على فئاتٍ من أبناءنا، ولم نستطع نحن حمايتَهم وتحصينهم من التأثُّر السلبي بما يعترض طريقهم من الشهوات والشبهات؟
- ما الذي جعل كثيرًا من الأبناء يتأثَّرون بأفكار الغلوِّ والتطرُّف والإلحاد في مدّة وجيزة، ويمارسون بعض السلوكيات الغريبة والمستهجنة ويدافعون عنها؟
- ألم تعانِ بعضُ مناطق العالم الإسلامي من حروبٍ ودمار، لكنّها أخرجت من تحت الأنقاض قادة في مجالات متعددة؟

هذه التساؤلات وغيرها الكثير ليس الغرض منها بث الحيرة والتشاؤم، وإنَّما تحريك الأذهان لتوصيف الحال والبحث عن الحلول؛ للخروج من تلك المعضلة التي تؤرق الأهل والمربين.

تلمُّس الإجابة عن تلك التساؤلات:

في محاولة للإجابة على بعض تلك التساؤلات يمكن القول بأنه ثمة أسبابٌ جوهريةٌ وراء ما نعانيه من أزمات تربوية، ومن أبرز تلك الأسباب: (سطحية التربية) والتي تتمثل في تكثيف بعضنا لجهودهم نحو قيام المتربين بالسلوكيات الظاهرة، وعندما يقع أحدهم بالخطأ نعمل أيضًا على تعديل هذا السلوك من خلال أمره بالقيام بالسلوك الصحيح، ولم ننتبه إلى أنَّ سلوكَنا وسلوكَ من نُربي ليس سلوكًا عارضًا ولم يأتِ من فراغ، وإنما وراءه دوافع ومحرِّكات كوّنت تلك السلوكيات قبل حدوثها.

وتركيزنا على بناء وتعديل السلوك الظاهري دون التوجُّه إلى إحداث تغيير في العوامل المشكِّلة للسلوك هو نوعٌ من التغيير السطحي، وربما المؤقّت القاصر، والذي هو عُرضة بدرجةٍ عاليةٍ من الخطورة لتغيُّر السلوك إلى سلوكٍ سلبي إذا توافرت الظروفُ المناسبة من عوارض خارجية أو محركات داخلية فيها إشباع لحاجات فكرية أو رغبات نفسية أو فطرية بأي طريقة كانت، فانتكاسُ العديد من الأبناء قد لا يكون له علاقة باهتمامنا بتربيتهم أو عدمه، وإنّما السبب هو التربية الخاطئة التي تُنتج ابنًا غير مكتمل التربية معرضًا للانتكاس، وهي التربية التي حرص فيها المربون على الاهتمام بتعويد الأبناء على السلوك الظاهر قبل العناية بغرس القيم ودون الاهتمام بتعميق المعتقدات والمفاهيم والتربية الوجدانية.

> **التربية الهشة هي التي حرص فيها المربون على الاهتمام بتعويد الأبناء على السلوك الظاهر قبل العناية بغرس القيم ودون الاهتمام بتعميق المعتقدات والمفاهيم والتربية الوجدانية**

مفاهيم لتعميق التربية والسلوك

1. بناء السلوك وتعديله عملية نمائية

2. السلوك يمكن أن يكون حيويًا أو هشًا بحسب اللُّب

3. السلوك هو ثمار الشجرة، وبحسب قوة أصل الشجرة تكون الثمار

4. يكون تشكيل المفاهيم الصحيحة والتربية الوجدانية للطفل قبل مطالبته بالسلوك

5. لا يقتصر هذا الأمر عند تربية الطفل بل يشمل جميع أنواع المتربين

6. التربية النبوية بدأت بالتغيير في العقائد، والأفكار، والتّصوُّرات، والأخلاق

7. لا يمكن تهذيب السلوك إلا عن طريق إدراك دوافعه والإلمام بما يُثيره داخلياً وخارجياً

مفاهيم لتعميق التربية والسلوك:

مما سبق يظهر أننا بحاجة لبعض المفاهيم التربوية التي تعمل على تعميق التربية وتجذير السلوك في المتربي، وفيما يلي بعض المفاهيم المتعلقة بهذا الموضوع:(١)

١. بناء السلوك وتعديله عملية نمائية، ومن مبادئ علم نفس النمو أن النمو يمر بمراحل، و«أن الفرد ينمو نموًا داخليًا كليًا.. وليس من الخارج، ويستجيب ككائنٍ كلي، ومصدر النمو هو الفردُ نفسه»(٢)، وأيُّ عملية نمائية للإنسان يجب أن تسير وفق هذا القانون، لذا فإن تربية الطفل لابد أن تبدأ ببناء جوهره أولًا ثم ينعكس هذا البناء على سلوكه، كما يجب أن يكون تكوين السلوك ضمن مراحل، والإنسان يولد وهو مزود بداخله بمجموعة من الدوافع والغرائز الطبيعية التي تمكنه من العيش وأداء أدواره، ولهذه الدوافع أثر كبير على سلوكه(٣)، ونمو تلك الدوافع ونضجها وعملها يمر بمراحل تبعًا للمراحل العمرية التي يعيشها الفرد، ودور التربية فيما يتعلق بتلك الدوافع تعليمه كيف يضبطها ويديرها ليتم إشباعها بطريقة صحيحة، ويصدر عن الفرد سلوك إيجابي تجاه نفسه ومن حوله.

٢. السلوك يمكن أن يكون حيويًا أو هشًا حسب اللُّب (التربية الداخلية العميقة)، فكلما كان اللبُّ حيًا كان السلوك حيويًا وملتصقًا به، حتى لو تلقّى هذا السلوك بعض الصدمات الخارجية فهناك ما يُسنده من الداخل، وإن حصل فيه نوع من التصدُّع فسرعان ما يلتئم الصدع أو يتبدّل بآخر، أما إن ضعُف اللب فإنّه سيصبح عُرضة للتغيُّر مع التقلبات والأوضاع، كما الثمرة التي يصيبها العطن من داخلها فيبدأ ذلك بالظهور على سطحها حتى يسري فيها وتضعف وتتشقق ويسهل كسرها.

> كلما اعتنى المربي بتربية جوهر المتربي وتزكية نفسه، انعكس ذلك على سلوكه إيجابيًا بالصلاح والاستقامة، وأحدث لديه حالة من التوازن عند اشباع دوافعه وحاجاته وفق ما أمره الله

(١) الغرض من عرض تلك المفاهيم هو تسليط الضوء على أهمية العناية بتربية ما وراء السلوك وبيان معنى التربية الهشة، ولن يتسع المجال لطرح الجوانب العلاجية والوقائية والتطبيقات العملية.

(٢) أساسيات علم النفس، فاطمة عبد الرحيم النوايسة، ص (١٢٣).

(٣) المدخل إلى علم النفس، د. مأمون مبيض، ص (١٦٣).

فكلّما اعتنى المربي بتربية جوهر المتربي (القيم – المعتقدات – الأفكار –الوجدان) وتزكية نفسه انعكس ذلك على سلوكه إيجابيًا بالصلاح والاستقامة، وأحدث لديه حالة من التوازن عند اشباع دوافعه وحاجاته وفق ما أمره الله، وكانت استجابته عن حب وطمأنينة، ولو تعرَّض لمثيرات سلبية فإنَّ نفسَه المؤمنة سوف تحجزه عن ارتكاب السلوك الخاطئ، ولو زلّت قدمُه فإنَّ نفسه سرعان ما تدعوه للإقلاع عما يفسد سلوكه أو لتبديل السلوك السلبي بسلوك إيجابي، وأن يحدث توبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[الأعراف:٢٠١].

٣. السلوك هو ثمار لشجرةٍ إن كان أصلها طيباً وجذورها عميقةً كانت ثمارُها طيبة، أما إن كانت جذورها ضعيفة سطحية فسرعان ما تسقط الشجرة كاملةً بما تحمله من ثمار، وإن كان لبُّها عفنًا أنتجت لنا ثمارًا فاسدة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٧]، فمع أهمية المظهر (السلوك الظاهر) والمطالبة بإصلاحه، لا بدَّ من العناية بتربية وتكوين الجوهر (قيم –معتقدات- أفكار) بحيث يكون منبعًا لهذا السلوك ومرجعًا له، ومحركًا له، وأخطر ما يمكن أن يُفشِل المشروع التربوي هو العمل عليه وتمثيله بسلوكيات ظاهرة وصور خارجية لا علاقة قوية لها بمقاصد التربية ومراميها العميقة.

٤. ينبغي تشكيل المفاهيم الصحيحة للطفل والاهتمام بالتربية الوجدانية، ثم مطالبته بالسلوك الذي يحقِّق تلك المفاهيم، وعندما يصل إلى مرحلة التمييز يزوَّد بالقيم والمعتقدات والأفكار ثمَّ يُطالَب بالسلوكيات التي تتَّفق معها، فعن جندب بن عبد الله، قال: (كنَّا مع النبي ﷺ، ونحن فتيان حزاورة، فتعلمنا

السلوك ليس استجابةً لمثيرٍ خارجيٍّ فقط! بل هو أيضًا لسان الحال المعبِّر عما في داخل النفس من قيم ومعتقدات، وهو القالب الذي تتجسَّد فيه المشاعر والأحاسيس والعواطف والانفعالات والغرائز

الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا)[١].

٥. لا يقتصر هذا الأمر عند تربية الطفل بل يشمل جميع أنواع المتربِّين، فقبل مطالبة المتربي بالسلوك الظاهر لا بد من بناء جوهره الذي يجعله يقوم بالسلوك الظاهر عن قناعةٍ وحب، والبدء ببناء الأمور الظاهرة (السلوكيات) قبل تأسيس القواعد يجعل البناء التربوي هشًا وينهار المتربي وينتكس مع أي هزّة، وقد يصل إلى نوع من التطرُّف أو الغلو أو الإلحاد، ومن الأمثلة التي توضح ذلك «ما ذكره بول فيتز في كتابه علم نفس الإلحاد ذلك المفهوم الشائع ويبين بخبرته الشخصية أسباب انتشار الإلحاد إذ أنه ملحد سابق فيقول: نشأت نشأة دينية مسيحية سطحية وفي الخمسينيات حين كنت طالبًا في الجامعة أصبحت ملحدًا وبقيت هكذا طوال سنوات الدراسة..، وكذلك السنوات الأولى من تدريبي في علم النفس التجريبي في جامعة نيويورك وبنهاية الثلاثينيات من عمري عدت إلى الإيمان المسيحي؛ وعندما أتأمل الفترة الشكّية الإلحادية في حياتي أجد أن دوافعي سطحية وغير منطقية!! وغير متماسكة عقليًا ولا أخلاقيًا!!»[٢].

٦. تربية النبي ﷺ بدأت بتغييرٍ في العقائد، والأفكار، والتَّصوُّر، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه؛ حيث كان اهتمام التربية الإسلامية في العهد المكي منصبًا على ترسيخ الجوانب الفكرية والعقدية والإيمانية، الأمر الذي أحدث بعد ذلك تغييرًا في سلوك الصحابة رضوان الله عليهم بما يتلاءم مع ما تشبعت به نفوسهم من إيمان راسخ، ثم بعد ذلك فرُضت العبادات والتي تعبِّر عمّا يحمله المسلم من عقيدة وتعظيم وتسليم لله رب العالمين، وإذا فقدت العبادات القيم التي تحافظ عليها وتحميها غدا صاحبها مفلسًا،

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٥٢).
(٢) الخارطة النفسية للإلحاد المعاصر، د. خالد الشهري، موقع الألوكة.



كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: (أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ؟ قالوا: المُفْلِسُ فِينا مَن لا دِرْهَمَ له ولا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ المُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلاةٍ، وصِيامٍ، وزَكاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ)[١] بهذا المعنى تصبحُ العباداتُ، التي لا تُثمِر أخلاقًا في سلوك المتعبِّدِ، علامةً على إفلاسٍ داخلي، أو قل: تصبحُ مجردَ طقوسٍ بلا معنى[٢].

٧. من خصائص السلوك الإنساني إمكانية ضبطه وتهذيبه وترشيده وتوجيهه، وذلك لا يكون عن طريق قمعه والمنع منه، وإنما يكون عن طريق إدراك دوافع السلوك والإلمام بطبيعةِ المُثيرات -الداخلية والخارجية- المحدّدة التي تؤدي إلى استجاباتٍ معينة[٣]، فالسلوك ليس استجابةً لمثير خارجيٍّ فقط (كما تدعي المدرسة السلوكية) بل هو أيضًا لسان الحال المعبِّر عما في داخل النفس من قيمٍ ومعتقدات، وهو القالب الذي تتجسَّد فيه المشاعر والأحاسيس والعواطف والانفعالات والغرائز[٤]، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]، فالعليم سبحانه وتعالى جعل التقوى هي الضابط للدوافع التي خلقها في عباده، وجعل اجتناب الكبائر والفواحش مؤشر عليها.

وختامًا:

فإنَّ أولادَنا هم هبةٌ من الله تعالى أنعَمَ بهم علينا، وشُكر هذه النعمة وتمامُها يكون بتربيتهم التربية السليمة، والمطلوب منّا تجاهَهم لا يقف عند تعويدهم على السلوكيات الصحيحة وحمايتهم من المخاطر الخارجية، فمعَ أهمِّيتها لكنها لا تكفي لإنشاء جيل صالح ومُصلح، وإنَّما الأهمُّ هو بناؤهم من الداخل؛ بزرع المفاهيم والقيم والمعتقدات في نفوسهم، وتعويدِهم على ضبط مشاعرهم وانفعالاتهم؛ لينعكس ذلك في سلوكيّاتهم، ومع تكرار تلك السلوكيات تُصبح جزءًا من شخصياتهم، فإذا وصلوا لمرحلة تحمُّل المسؤولية كانوا ممكّنين قادرين على الثبات على مبادئهم والحفاظ على هويتهم، بعد توفيق الله ومنّته.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١).

(٢) الحراق، محمد التهامي، واقعنا الديني: فيض في الروحانية أم تخمة في الطقوسية؟

(٣) أساليب تعديل السلوك الإنساني، عدنان أحمد الفسفوس، ص(١٣).

(٤) تعديل السلوك الإنساني في التربية الإسلامية، عماد عبد الله الشريفين، ٢٠٠٢م، ص(١).



في فقه الأولويات

أ. عبد الناصر حسن صويص (*)

تتزاحم الأعمالُ والمهامُ الواجبُ القيام بها في العديد من الأوقات، وعلى الأخص في أوقات النهوض واستعادة الأمجاد حتى يضيق بها الوقتُ والجهد، وقد يُصبح القيام بها كلها متعذِّرًا، بالإضافة إلى أنَّ هذه الأعمال مُتفاوتةٌ فيما بينها من حيث الأهمية والأثر، فعلى فعل أيها يقع الخيار؟ وبأيها يكون البدء؟ وما معايير ذلك؟ في هذه المقالة توضيحٌ لأهم هذه المسائل.

لم تكن الأمة الإسلامية في أي وقتٍ مضى بحاجةٍ إلى فقه الأولويات كحاجتها إليه اليوم، لتخرُج من الحيرة والتردُّد عندما تواجهها نوازل كبيرة لا يمكن النظر إليها مستقلَّةً منفردةً عن غيرها من المسائل الفقهية الأخرى.

وفقهُ الأولويات مصطلحٌ جديدٌ شاع وانتشر وكتبَ فيه المُعاصرون من علماء الأمة، لكنّه ليس مُبتدَعًا مُحدَثًا، وإنَّما هو علمٌ قديمٌ تشهد له نُصوص الكتاب والسنّة وعمل الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وقد اشتملت عليه طيّات مصنَّفات السلف دون أن يُفرَد بمصنَّف مستقلٍّ إلا في العصر الحاضر للضرورة الملحَّة.

> **فقه الأولويات علمٌ قديمٌ تشهد له نُصوص الكتاب والسنّة وعمل الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وقد اشتملت عليه طيّات مصنَّفات السلف دون أن يُفرَد بمصنَّف مستقلٍّ إلا في العصر الحاضر**

أهمية فقه الأولويات:

تُواجه الأمّة أثناء سَعيِها للنُّهوض واسترجاعِ سالفِ مجدِها الكثيرَ من المسائل التي تحتاجُ لبحثٍ ونظرٍ وعمل، وهي كثيرةٌ ومتشعِّبة، لكن من أينَ تكون البداية؟ وعلى أيِّها يكون التركيز؟

لقد باتَ واضحًا أنَّه من المستحيل النهوضُ بالأمّة والقيامُ بهذا الدين جملةً واحدة في وقتٍ واحد، لذا كان من الضروريِّ البحثُ في منهجٍ

(*) دبلوم دراسات إسلامية، خطيب وداعية.

واضح يقومُ على قواعد وأسس علمية تُبيِّن لنا ما هو الأحقُّ بالتقديم، وما هو الأحقُّ بالتأخير، وما هو المهمُّ، وما هو الأهمُّ والأولى. مع الإقرار بأنَّ الدينَ كاملٌ ولا يجوز التفريط في شيءٍ منه، ألا وهو فقه الأولويات.

فما المقصود به؟ وما دليله؟ وما هي ضوابطه؟ وما هي الأسس التي يتم الاعتماد عليها في ترتيب هذه الأولويات؟

ما هو فقه الأولويات؟

فقه الأولويات: هو العلم بالأحكام الشرعية التي لها حقُّ التقديم على غيرها بناءً على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي يتطلَّبها، فيضعُ كلَّ شيءٍ في مرتبته، فلا يؤخِّر ما حقّه التقديم، ولا يقدِّم ما حقُّه التأخير، ولا يُصغِّر الأمر الكبير، ولا يُكبِّر الأمر الصغير(١).

فالأولويات: ميزانٌ للأعمال الأولى فالأولى، ووضعُ الشيءِ في نصابه ومكانته ودرجته.

فيقدّم الأهمُّ فالأهمّ، والأحوجُ فالأحوجُ، والأنفعُ فالأنفعُ، ومن هذا الباب: الدعوة إلى التوحيد قبل العبادات، وإلى الإيمان قبل الأحكام، والخوف من الله قبل النهي عن المحرَّمات(٢).

تأصيل فقه الأولويات:

يستمدُّ فقه الأولويات مشروعيته من كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنة رسوله ﷺ، ففي الكتاب والسنة وسيرة النبي ﷺ تطبيقٌ عمليٌّ للأولويّات التي يجبُ مُراعاتُها للنهوض بالأمة وإصلاحها والعودة بها إلى سالف عهدها ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وهذا ما نبَّه إليه الإمام مالك رحمه الله إذ يقول: «وَلَا يُصْلِحِ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا»(٣).

أدلة اعتبار الأولويات من القرآن:

قرَّر القرآن الكريم أنَّ الأعمالَ ليست سواء، وأنَّها مُتفاوتةٌ في الأهمية وتقديم العمل، ومن ذلك:

> **فقه الأولويات: هو العلم بالأحكام الشرعية التي لها حقُّ التقديم على غيرها بناءً على العلم بمراتبها، وبالواقع الذي يتطلَّبها، فيضعُ كلَّ شيءٍ في مرتبته، فلا يؤخِّر ما حقُّه التقديم، ولا يقدِّم ما حقُّه التأخير**

١. قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩].

ففاضلت الآيةُ بين أمرين كلاهُما طاعةٌ وقُربة، وبيَّنت أنَّهما لا يستويان، فالجهادُ في سبيل الله أعظمُ درجةً عند الله لأنَّ نفعه أعظم للأمة.

قال ابن تيمية: «ولهذا قال العلماء: إنَّ الرباط بالثغور أفضلُ من المجاورة بالحرمين الشريفين؛ لأنَّ المرابطةَ من جنس الجهاد، والمجاورةُ من جنس الحجِّ، وجنس الجهاد أفضل باتفاق المسلمين من جنس الحج»(٤).

٢. قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]. وفيه أولوية الإسرار بالصدقة.

قال الهراسي: «فيه دلالةٌ على أن إخفاء الصدقات مطلقًا أولى»(٥).

٣. قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]. وفيه أولوية درءُ المفاسد على جلب المنافع.

قال الهراسي: في قوله: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ «يدلُّ على المفسدة في شربها، وأنَّ ما فيها من المنفعة لا يُقاوَم بالمفسدة»(٦).

٤. قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ

---

(١) ينظر: فقه الأولويات، للقرضاوي ص (٩)، وفقه الأولويات، لمحمد الوكيلي ص (١٦).

(٢) ينظر: أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، للقرضاوي، ص(٣٨). والأولويات، دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، للقرضاوي ص(٩)، وفقه الأولويات، للوكيلي، ص(١٦).

(٣) ثابت عن مالك رحمه الله؛ نقله عنه القاضي عياض في «الشفا» (٢ / ٨٨)، وينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٧/ ١١٨).

(٤) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٤٤٤/٢).

(٥) أحكام القرآن، للكيا الهراسي (٢٢٧/١).

(٦) المصدر السابق (١٢٥/١).

أبرز الآثار المترتبة على إهمال العمل بالأولويات:

1. إحداث خلل في الدعوة
2. الصراع والنزاع بين أفراد الأمة وجماعاتها
3. الاضطراب في فهم الشريعة وأحكامها
4. تعظيم الخلافات الصغيرة
5. تفويت الأجور والعمل بالمفضول

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وفيه أنَّ درء المفاسد العظيمة مقدم على درء المفاسد الصغيرة.

قال العزُّ بن عبد السلام: «فأخبرهم بأنَّ الصدَّ والإخراجَ والفتنةَ أكبرُ من القتل في الحرم والشهر الحرام»(١).

أدلة اعتبار الأولويات من السنة:

دلَّت العديد من الأحاديث النبوية على مُراعاة الأولوية في المسائل كافَّة، ومن ذلك:

١. قوله ﷺ لمعاذ بن جبل: (إنَّكَ ستأتي قومًا أهلَ كتاب، فإذا جئتهم، فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ...) وفي رواية: (فَليكُن أوَّلَ ما تدعوهُم إلى أن يوحِّدوا الله تعالى)(٢). وفيه توضيح أولويات الدعوة عموما، وتقديم العناية بالتوحيد.

٢. وجاء رجلٌ من أهل نَجد يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (خمسُ صلواتٍ في اليومِ والليلة. فقال: هَل عليَّ غيرُها؟ قال: لا، إلا أنْ تَطوَّع. قال رسول الله ﷺ: وصيامُ رمضان. قال: هل عليَّ غيرُه؟ قال: لا، إلا أن تَطوَّع. قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تَطوَّع. قال: فأدبَرَ الرجل وهو يقول: والله لا أزيدُ على هذا ولا أنقُص، قال رسول الله ﷺ: أفلَحَ إن صَدَق)(٣). وفيه بيان أولوية الفرائض بعضها على بعض وأولوية الفرائض على النوافل في الطاعات

٣. وقال رسول الله ﷺ: (ما مِن أيامِ العملُ الصالح فيها أحبَّ إلى الله عز وجل مِن هذه الأيام -يعني أيام العشر-، قال: قالوا: يا رسول الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلًا خرجَ بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء)(٤). وفيه أولوية عشر ذي الحجة على غيرها في العمل الصالح لفضلها وأفضلية العمل فيها.

أُسس تحديد الأولويات:

للتعرف على الأولويات الواجبِ الأخذُ بها أسسٌ ومصادر يمكن إيجازها فيما يلي:

١. الاعتماد على المصادر الشرعية في الاستدلال والتلقي:

تُحدَّد الأولويات بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وما يُبنى عليهما من قواعد شرعية، وضوابط استنبطها أهل العلم. قال الله تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

(١) تفسير القرآن، (٢٠٩/١).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، (٧٣٧٢).
(٣) أخرجه البخاري (٤٦).
(٤) أخرجه أبو داوود (٢٤٣٨).

وقال رسولُ الله ﷺ: (إنِّي قد تركتُ فيكم شيئَينِ لن تَضِلُّوا بعدَهما: كتابَ الله وسُنَّتي)[1].

٢. تقديم ما قدمه الشارع الحكيم[2]:

والأمثلة عليه كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منها: تقديم إصلاح ذات بين المسلمين على أداء النوافل، قال رسول الله ﷺ: (ألا أُخبركم بأفضلِ من درجةِ الصلاة، والصيام، والصدقة؟ « قالوا: بلى قال: إصلاحُ ذاتِ البَين، قال: وفسادُ ذاتِ البِين هي الحالِقة»[3].

٣. العلم بالواقع:

ومنه قوله ﷺ لمعاذ بن جبل ﷺ: (إنَّكَ تقدُم على قوم أهلِ كتاب...)[4]. قال ابن دقيق العيد: «لعله للتَّوطِئة والتمهيد للوصية باستجماعِ همَّته في الدعاء لهم. فإنَّ أهل الكتاب أهل علم، ومُخاطبتهم لا تكون كمُخاطبة جُهّال المشركين، وعَبدة الأوثان في العناية بها والبداءة في المطالبة بالشهادتين: لأنَّ ذلك أصل الدين الذي لا يصح شيء من فروعه إلا به»[5].

٤. الموازنة بين المصالح والمفاسد:

ومنه امتناع النبي ﷺ عن إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم لحداثة إسلام قريش وعدم ثبات الإسلام في قلوبهم، فخشي أن تحصل بسبب ذلك مفسدة عظيمة، قال ﷺ: (لولا أنَّ قومَكِ حديثُ عهدِهم بالجاهلية، فأخافُ أن تُنكِرَ قلوبُهم، أن أُدخِلَ الجَدْرَ في البيت، وأن أُلصِق بابَه بالأرض)[6].

٥. مراعاة حال الأشخاص وقدراتهم:

فالنبي ﷺ لم يُعنِّف الأعرابي حين بَالَ في المسجد لحداثة عهده بالإسلام وجهله بأحكام المساجد فقال ﷺ: (لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ، فَتَرَكوه حتى بَالَ، ثم إن رسول الله ﷺ دعاهُ فقال له: إنَّ هذه المساجدَ لا تَصلُحُ لشيءٍ من هذا البول ولا القَذَر، إنما هي لِذكر الله عز وجل، والصلاةِ وقراءةِ القرآن)[7].

٦. ترشيد الاختلاف لواجب الائتلاف:

ومنه أنَّه إذا أرسل أميرين إلى مكان واحد أمرهما أن يتطاوعا ولا يتعاصيا فقد بعث النبي ﷺ معاذًا وأبا موسى إلى اليمن، فقال لهما: (يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِرا، وتَطَاوعا ولا تَختلفا)[8].

٧. النظر إلى مآلات الأمور:

فقد امتنع النبي ﷺ عن قتل المنافقين حتى لا يؤثِّر ذلك على مسيرة الدعوة، وقال لعمر ﷺ: (لا يتحدَّثُ الناس أن محمدًا يقتلُ أصحابه)[9].

الأولويات الدعوية من سيرة رسول الله ﷺ:

يمكن ترتيب الأولويات التي راعاها رسول الله ﷺ في دعوته حسب الأهمية:

١. أولوية الدعوة إلى تصحيح العقيدة، وتحقيق التوحيد قبل كل شيء:

إنَّ حاجتنا إلى العقيدة الصحيحة فوق كل حاجة، فالتوحيد أوّل ما يدخل به المرء في الإسلام، فهو أول واجب على العبد وهو أول دعوة الرسل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

ولقد أمضى النبي ﷺ حياته في الدعوة إلى التوحيد وجاهد أعدائه من أجلها قال ﷺ: (أُمِرتُ أن أُقاتِلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)[10].

وكان ﷺ حين يرسل الرسل يأمرهم أن يبدؤوا بالدعوة إلى التوحيد قبل كل شيء وقال لمعاذ بن جبل ﷺ: (فَليكن أولَ ما تدعُوهم إلى أن يُوحِّدوا الله تعالى)[11].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٩) وصححه، ووافقه الذهبي.
(٢) فقه الأولويات، للوكيلي ص(١١٤).
(٣) أخرجه أحمد (٢٧٥٠٨).
(٤) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (٣١).
(٥) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٣٧٥/١).
(٦) أخرجه البخاري (١٥٨٤).
(٧) أخرجه مسلم (٢٨٥). ومعنى (لا تُزْرِمُوهُ): لا تقطعوا عليه بوله.
(٨) أخرجه البخاري (٣٠٣٨).
(٩) أخرجه البخاري (٤٩٠٥).
(١٠) أخرجه البخاري (٢٥).
(١١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

لهذا كان الأمر الأحقُّ بالتقديم والأولى بالعناية من غيره، هو تصحيح العقيدة، وتجريد التوحيد، وتعميق بذور الإيمان في القلوب، حتى تؤتي أكلها بإذن ربها، ويتضح ذلك جليًا في قول عائشة رضي الله عنها: (إنما نَزَلَ أولَ ما نزلَ منه سورةٌ من المُفصَّل، فيها ذكرُ الجنّة والنار، حتى إذا ثَابَ الناس إلى الإسلامِ نَزل الحلال والحرام، ولو نَزلَ أولَ شيءٍ: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا نَدعُ الخمرَ أبدًا، ولو نزلَ: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا)(١). فعلى قدر تمكُّن الإيمان من القلوب ورسوخه فيها تكون الثمار، من فعل المأمور، أو اجتناب المحظور.

لقد نزل أول ما نزل من السور المكية المفصَّلُ من القرآن في ثلاثة عشر عامًا، وهي تُخاطِب الناس بكلِ مفردات الإيمان بالله وفيه ذِكر الجنَّة والنَّار، حتَّى إذا ثَابَ النَّاس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام.

إنَّ هذه التربية قد تستغرق زمنًا طويلًا من أجل بناء من يحمل الدعوة ويبلغها، ولكنها بعد ذلك تثمر الثمرات الجليلة الكثيرة في زمن يسير، فهذا مصعب بن عمير الذي رباه النبي ﷺ على الإسلام وسقاه القرآن، كيف فتح الله عز وجل به في زمن يسير قلوب الأنصار.

وانظر إلى أثر غرس العقيدة الصحيحة في صدور الرجال كيف حملتهم على الهجرة مُخلِّفين وراءهم الوطن والأهل والمال.

وانظر إلى صدق عقيدهم وقوتها وهم يتسابقون إلى الموت نصرة لدين الله وطمعًا في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وتأمل كيف هُزم المسلمون يوم حنين في الجولة الأولى والسبب: العُجب الذي تسرب إلى قلوب البعض، فقال: لن نغلب اليوم من قلة، وهذا يُظهر أهمية التربية على العقيدة الصحيحة.

وذلك من أسباب تأخر الانتصارات وتتالي الهزائم على المسلمين في الوقت الحالي لأنَّ الشعوب عامةً والجيوش خاصة لم تتربَّ على العقيدة الصحيحة ولم تُحقق عقيدة الولاء والبراء.(٢). فإذا ما غَفلَت عن عقيدتها وتعلَّقت القلوب بغيرها تقلَّبت في ثنايا الإهانات والنكبات والنكسات.

وهذا واقعنا اليوم! فما هُزمت الأمّة في موقع ما بعد النصر والتمكين إلا بعد تمكّن حبِّ الدُّنيا من القلوب، ولقد قال الله تعالى لأهل أحدٍ رضى الله عنهم مبيِّنًا سببَ الهزيمة بعد النصر: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

علمًا أنَّ الذين نعتهم الله بأنَّهم يريدون الدنيا هم قلة من الرماة، نزلوا من على الجبل وخالفوا أمر نبيهم ﷺ ظنًا منهم أنَّ المعركة انتهت. فكيف لجيوش تجاهر بمعصية الله ومعصية الرسول وجعلت الولاء والبراء على أساس القومية أو القُطرية أو الحزب أو الفصيل أن تنتصر؟

الإسلام حريصٌ على إيمان الناس ودخولهم في الدين بكلِّ طريقةٍ مُمكنة، والأولوية لذلك على قتالهم أو خوض معارك معهم

> **غياب فقه الأولويات من أسباب تأخُّر الانتصارات وتتالي الهزائم على المسلمين في الوقت الحالي؛ لأنَّ الشعوب عامةً والجيوش خاصة لم تتربَّ على العقيدة الصحيحة ولم تُحقق عقيدة الولاء والبراء**

٢. أولوية دخول الناس في الدين على قتالهم:

فالإسلام حريصٌ على إيمان الناس ودخولهم في الدين بكلِّ طريقةٍ مُمكنة، والأولوية لذلك على قتالهم أو خوض معارك معهم، لذلك سعى إلى توطيد الأمن وعقد المعاهدات لتوفير بيئة آمنة هادئةٍ لدعوة الناس للدخول في الدين، ويشهد لذلك:

أ. مُكثُ النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة لا يُحارب الناس، بل يصبر على إيذائهم، ويأمر أصحابه بالصبر.

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٣). والمقصود بالمفصَّل: سور القرآن القصيرة التي كثر الفصل بينها بالبسملة، سمي مفصّلاً لكثرة فواصله، وفي تحديدها كلامٌ لأهل العلم.

(٢) ينظر: المستفاد من قصص القرآن، عبد الكريم زيدان (٤٠٩/٢).

ب. حين قال له مَلَك الجبال: (إن شئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأَخشَبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يُخرِجَ الله مِن أصلابِهم من يعبدُ الله وحدَه)[1].

ج. وفي المدينة كتب «وثيقة المدينة «التي تُعدُّ أول دستور مدني في تاريخ البشرية، وما قاتل اليهود إلا بعد نقضها.

د. قَبِلَ ﷺ صُلح الحديبية تغليبًا للسِّلم على الحرب، وطمعًا في إسلام قريش وتعظيمًا لشعائر الله.

هـ. وأرسل أبا سفيان إلى مكة ليقول لهم: (مَن دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن)[2].

٣. أولوية الحفاظ على المبادئ والعهود والمواثيق على مصالح البعض:

إنَّ المبادئ في الإسلام لا تتجزَّأ، والالتزامَ بها ضرورةٌ رغمَ كلِّ الظروف، فالنبيُّ ﷺ كان حريصًا على أداءِ الأمانات التي كانتْ مودعةً لديه إلى أهلها، الذين استباحوا دمَه، وأرادوا قتْلَه، لكنَّه لم يستبِحْ أموالهم، فترَك عليًّا رضي الله عنه في فِراشه ليردها لهم من الغد.[3]

وحذيفة رضي الله عنه لم يشهد بدرًا لأنَّ قُريشًا خلَّت سبيله بعد أن أخذت عليه عهد الله وميثاقه أن ينصرف إلى المدينة، ولا يقاتل، قال: فأتينا رسول الله ﷺ، فأخبرناه الخبر، فقال: (انصرِفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعينُ اللهَ عليهم)[4].

وردَّ عليه الصلاة والسلام أبا بصير وأبا جندل وأمثالهم رضي الله عنهم إلى قريش عملاً ببنود صلح الحديبية، (ولم يأتِ رسولَ الله ﷺ أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة، وإن كان مسلمًا)[5].

> **الإسلام حريصٌ على إيمان الناس ودخولهم في الدين بكلِّ طريقةٍ مُمكنة، والأولوية لذلك على قتالهم أو خوض معارك معهم**

وكان بين مُعاوية رضي الله عنه وبين أهل الروم عهدٌ، وكان يسير في بلادهم، حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم، فإذا رجلٌ على دابّة أو على فرس، وهو يقول: الله أكبر، وفاءٌ لا غدر، وإذا هو عمرو بن عبسة، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (مَن كان بينه وبين قوم عهدٌ فلا يَحُلَّنَ عهدًا، ولا يَشُدَّنَّهُ حتى يَمضي أمدُه، أو يَنبِذَ إليهم على سَواء)، قال: فرجع معاوية بالناس[6].

وهذا ما نفتقده اليوم فلقد وصل الأمر بالبعض منا أن يتعدى على أموال المسلمين ولا يحفظ لهم عهدًا ولا ميثاقًا ولا ذمَّة.

وقد قال رسول الله ﷺ: لكل غادرٍ لواءٌ يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة[7].

وقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: (أيُّما رجلٍ أمَّنَ رجلًا على دَمِه ثم قَتَلَه، فأنا من القاتل بريء، وإن كان المقتولُ كافرًا)[8].

٤. أولوية القصاص من المجرمين على الفداء:

كان رسول الله ﷺ يوصي بالأسرى خيرًا، إلا أنه أَمَرَ بقتل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط من بين الأسرى، جزاءً وفاقًا لما ارتكبوه من جنايات ضد رسول الله ﷺ والمسلمين والإسلام؛ لما في ذلك من تحقيق العدالة، وشفاء صدور المؤمنين مما أصابهم من هؤلاء المجرمين، وليكونوا عبرة لغيرهم.

قال ابن كثير: «كان هذان الرجلان من شرِّ عباد الله، وأكثرهم كفرًا وعنادًا، وبغيًا وحسدًا، وهجاءً للإسلام وأهله، لعنهما الله»[9].

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٠).
(٣) ينظر: صحيح الأثر وجميل العِبر من سيرة خير البشر، محمد بن صامل السُّلَميُّ (١٦٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٨٧).
(٥) أخرجه البخاري (٢٧١١).
(٦) أخرجه الترمذي (١٥٨٠) وقال حسن صحيح.
(٧) أخرجه مسلم (١٧٣٨).
(٨) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥٩٨٢).
(٩) ينظر: البداية والنهاية، لابن كثير، (١٨٩/٥).

> **إنَّ فقدان فقه الأولويات يُحدِث خللًا بالغًا في الدعوة، ويوقع كثيرًا من الدعاة في اضطراب في المنهج؛ فتضيع بذلك الأوقات، وتُهدر الطاقات، ويُحدث ذلك أثرًا سلبيًا، بل نتائج عكسية**

فمُجرموا الحروب هذا جزاؤهم العادل، عوضًا عن فك أسرهم بمقابل زهيد ليعودوا لحضن المجرمين ويعاودوا القتال من جديد.

أبرز الآثار المترتبة على إهمال العمل بالأولويات:

١. إنَّ فقدان فقه الأولويات يُحدِث خللًا بالغًا في الدعوة، ويوقع كثيرًا من الدعاة في اضطراب في المنهج؛ فتضيع بذلك الأوقات، وتُهدر الطاقات، ويُحدث ذلك أثرًا سلبيًا، وربما نتائج عكسية في دعوة من فَقَدَ ذلك.

٢. يؤدي غياب الأولويات إلى صراع ونزاع بين أفراد الأمة وجماعاتها وجعل الولاء والبراء على أساس هذا الخلاف، كالاختلاف على صلاة التراويح، ثمان أم عشرين؟ والسجود على الركبتين أم اليدين أولًا؟ ووضع اليدين أثناء القيام، وتحريك الأصبع في التشهد، وكلها سُنن! واجتماع كلمة المسلمين واجب، والواجب أعلى من السنة.

فتضعُف الأمة ويذهبُ ريحُها ويتسلَّط عليها الأعداء، فيستبيحون دَمَها ومالها وعرضها كما هو الحال الآن، وهذا ما حذّر الله عزَّ وجلَّ منه، فقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٣. إنَّ إهمال ترتيب الأولويات قد يؤدي إلى حدوث اضطراب في فهم الشريعة وأحكامها، فقد يقدَّم المندوب على الفرض، ويقدَّم المفضول على الفاضل، وتُترَك المكروهات قبل المحرَّمات.

٤. تكبير الخلاف الصغير، فيتحوَّل من خلاف فقهي سائغ إلى شقاق وقطيعة ونزال.

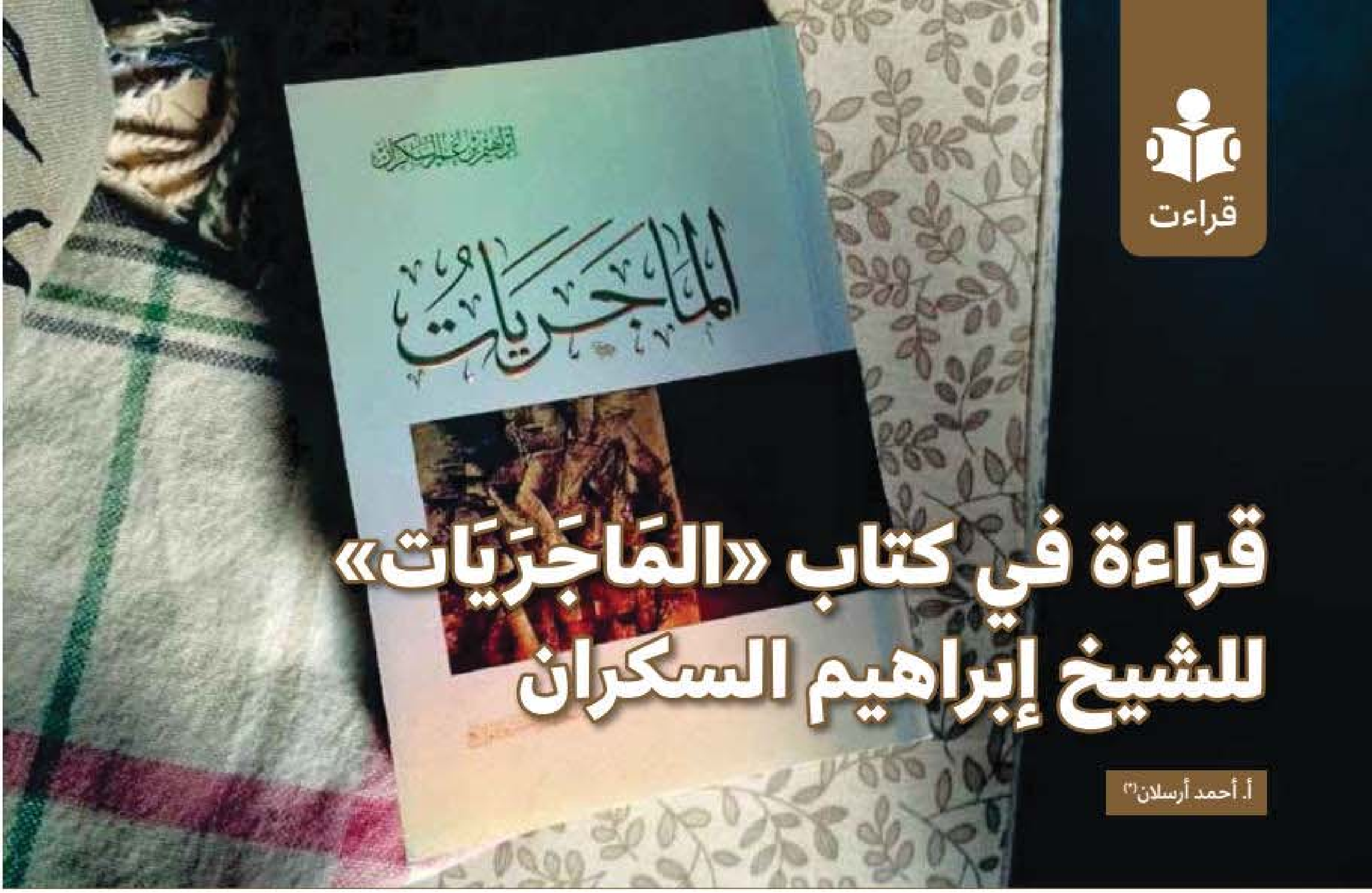
٥. تفويت الأجر: فإهمال ترتيب الأولويات قد يؤدي إلى الاهتمام بالعمل الأقل أجرًا، وترك العمل الأكثر أجرًا.

الخلاصة:

- فقهُ الأولويات يُعين الداعية على ترتيب ما حقُّه التقديم وما حقُّه التأخير.
- فقهُ الأولويات يمنحُ الداعية البصيرة في دعوته.
- فقهُ الأولويات يُراعي واقع المدعوّ وفقه الموازنات بين المصالح والمفاسد.
- إنَّ فقدان فقه الأولويات يُحدِث خللًا بالغًا في الدعوة، واضطرابًا في المنهج؛ فتضيع بذلك الأوقات، وتُهدر الطاقات، ويُحدث ذلك أثرًا سلبيًا، وربما نتائج عكسية في دعوة من فَقَدَ ذلك.

أسس ومصادر التعرف على فقه الأولويات

1. الاعتماد على المصادر الشرعية في الاستدلال والتلقي
2. تقديم ما قدمه الشارع الحكيم
3. العلم بالواقع
4. الموازنة بين المصالح والمفاسد
5. مراعاة حال الأشخاص وقدراتهم
6. ترشيد الاختلاف لواجب الائتلاف
7. النظر إلى مآلات الأمور



قراءة في كتاب «المَاجَرَيَات» للشيخ إبراهيم السكران

أ. أحمد أرسلان(*)

يتناول الكتاب مسألة الانشغال بوقائع الأحداث ومجريات الأيام عن الأمور العظام، وضياع الأوقات والأعمار بها، وتأثيرها على طلب العلم والدعوة إلى الله والإصلاح في المجتمع، من خلال نظرات شرعية نفسية اجتماعية، مع ضرب أمثلة من التاريخ الإسلامي، بما يقدم من نماذج حية لكيفية التعامل مع هذه الوقائع والأحداث، وحسن إدارة الوقت واستغلاله.

نبذة عن المؤلف:

إبراهيم بن عمر السكران التميمي، ولد عام (١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م)، وتخرج في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، نال درجة الماجستير في السياسة الشرعيّة من المعهد العالي للقضاء التابع للجامعة، وفيما بعد نال درجة الماجستير في القانون التجاري الدولي في جامعة إسكس بمدينة كولشستر في بريطانيا(١)، ولديه عددٌ من المؤلفات والكتابات الدعوية والفكرية.

وصف الكتاب:

يقع الكتاب في (٣٤٤) صفحة من القطع المتوسط، الطبعة الثانية منه لدار الحضارة للنشر والتوزيع في الرياض عام ١٤٣٦هـ، ٢٠١٥م.

عنوانه (الماجَرَيَات):

وتعني: الأحداث والوقائع والأخبار، والكلمة مولَّدة بأسلوب التركيب المزجي، أصلها (ما جَرَى) ثم جمعت بكلمة واحدة عندما اتّسع استخدامها، وأدخلت عليها اللواصق كألف التعريف.

واستخدمها عددٌ من العلماء سابقًا، كابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في سياق ماجَرَيات النفس والهَزَل واللعب والأخبار والأحداث التي لا تنفع، كما جاءت في كلام غيرهم من الأدباء والمؤرخين كابن خلدون وابن خِلِّكان والسخاوي بمعنى الأخبار.

محتوى الكتاب:

يقع الكتاب في مقدمة، تلاها مدخل سماه المؤلف (التمييزات الحاكمة)، وثلاثة فصول، كما يأتي:

(*) مدوِّن، ومتخصص في صناعة المحتوى والإنتاج الإعلامي.

(١) موقع المرسال الإلكتروني، موقع أبجد الإلكتروني.

- التمييزات الحاكمة/ وهي جملة من الضوابط والمرشحات التي تفصل بين الممارسات الصحيحة والخاطئة في التعامل مع الماجريات والأحداث السياسية.
- الفصل الأول/ موقع الماجَرَيات: يحتوي على مفاهيم مهمة في طبيعة التلقي البشري، وتأصيل الماجريات وتأثيرها.
- الفصل الثاني/ الماجَرَيات الشبكية: وتتضمن عددًا من الممارسات والعادات السلبية الحديثة المرتبطة بشبكة الإنترنت، والمؤثرة في تناول الماجريات والانشغال بها.
- الفصل الثالث/ الماجَرَيات السياسية: واختار المؤلف لهذا الفصل خمسة نماذج من الأعلام والمفكرين جعلهم أنموذجًا للفهم الصحيح والمعتدل للعمل السياسي والتعامل مع قضايا الشأن العام.

القراءة في الكتاب:

للانشغال بالشبكات الاجتماعية والماجَرَيات تأثير سلبي على المهام العِلمية والعَمَلية حتى يَفوتَ وقتُ إكمالها، فيضطرُّ صاحبها للتأجيل والتأخير مرةً بعد مرة، كما أنَّ متابعة الوقائع والأحداث والنقاشات تصوغ نمطًا من (التفكير الأفقي)، لا يُبصر معه طالب العلم إلا القشرة الخارجية من المتغيرات، ولا يعرف إلا المنتج النهائي من التصوُّرات، ومع اكتسابه نموًّا في الوعي بالواقع وتطورًا في اللغة السياسية، ومخزونًا من تفاصيل الأحداث يستثمرها في البرهنة أثناء مناقشاته، إلا أنه خسر صبره على الحفظ والتحصيل المعرفي والتربوي والبحث العلمي، فيصبح بعدها سطحي النظر، فكيف نوازن؟!

التمييزات الحاكمة للدراسة:

١. **التمييز بين فقه الواقع والغرق في الواقع:** كثيرٌ ممن اقتنع بضرورة «فقه الواقع» في العلم والإصلاح، تحوّل لا شعوريًا إلى الانغماس في دوامة الأحداث والوقائع حتى تجاوز القدر المطلوب، فخرج عن «فقه الواقع» إلى «الغرق في وحل الواقع».

٢. **التمييز بين المتابعة المُتفرِّجة والمتابعة المُنتِجة:** من المفيد متابعةُ الأحداث السياسية والفكرية والاجتماعية بهدف زيادة الإنتاج كمًا وزيادة فعاليته كيفًا، وهذه «متابعة منتجة»، والمشكلة في الغرق في المتابعة لدرجة «المتابعة المتفرِّجة».

> **ليس المطلوب جزّ الشجرة، بل تقليم الغصن الناشز**

٣. **التمييز بين المتابعة زمن التحصيل والمتابعة زمن العطاء:** إنَّ الشابَّ في السنوات الذهبية التي تتميز بالقوة البدنية، والصفاء الفكري، وقلة الأعباء الاجتماعية، والنشاط وفوران الهمّة، ينبغي أن ينكبَّ على التحصيل العلمي، ويطّلع على المجملات في هوامش وقته، أما زمن العطاء فيمكنه التوسُّعُ في متابعة الأحداث بما يحسِّن إنتاجَه كمًا ونوعًا.

٤. **التمييز بين توظيف الآلة والارتهان للآلة:** كثير ممن اقتحموا الشبكات الحديثة تحولوا من مُنتجِين يوظّفون الآلة، إلى مُتابعين تخرطهم الآلةُ في ماجَرَياتها، ومن مُنتِجين لأشرفِ ما يكون في هذه الوسائل من العلم والإيمان، إلى مستهلِكين لأدنى ما تُنتِجه هذه الشبكات من المهاترات والشائعات.

٥. **مواقف واتجاهات المشتغلين بالعلم والدعوة مع السياسة:**

أ. فاتجاه العلمنة ينابذ سلطة الأحكام الشرعية على السياسية.

ب. واتجاه السلطنة يُخضع السياسة لهيمنة الأحكام الشرعية لكن يحصر حق الحديث عنها في المستبد.

ج. واتجاه التعميم يُخضع السياسة لهيمنة الأحكام الشرعية لكن يستنهض الجميع للدخول في الاشتغال السياسي، إما صراحة أو بلسان الحال.

د. واتجاه التخصيص يُخضع السياسة لهيمنة الأحكام الشرعية كذلك، لكن يضعها في مربّع التخصص المطلوب وغيرُ المتخصِّص يكفيه مُجملاتها، ولا يُلهِب الجميع للتصدّي للبتِّ في مسائلها.

وهذا الاتجاه لا يَعتبر الاشتغالَ السياسي هو المفتاحَ الوحيد للإصلاح، بل يراه خطًا مُهمًّا ضمن خطوطٍ كثيرة علمية ودعوية، لا يجوز الجور عليها

> لا شيء يهرش الكدر ويكبس الغم على النفس كشاب كان للتوِّ قد ثنى رجليه على متون العلم أو لبس نظاراته للثقافة الجادة، ثم انتحى يهريق عمره يتتبع المهاترات الفكرية والتيارية ومماحكات القضايا الصغيرة على الشبكة

في سياق تفخيم شأنه، ويُعطى وزنَه الطبيعي، لا باعتباره أبًا للإصلاح، ولا باعتباره أجنبيًا دخيلاً عليه، بل باعتباره أحد الأشقّاء الأفاضل في عائلة الإصلاح.

موقع الماجريات:

الماجريات تستهلك الطاقة الذهنية:

الإنسان يملك كميةً معينةً من وقود التفكير، فينبغي للمرء أن يكون حاذقًا في صرف طاقته الذهنية في المواد المجدية، يقول ابن القيم في كتابه «الفوائد» في بيان أساس هذا المفهوم: «أصلُ الخيرِ والشرِّ من قبل التفكر، فإنَّ الفكرَ مبدأ الإرادة». ثمَّ واصل ابن القيم وسبر وقسَّم مسارات التفكير البشري.

واستعرض بعد ذلك نماذج من الأفكار الشريفة، ونماذجَ أخرى من الأفكار الرديئة فقال: «وبإزاء هذه الأفكار: الأفكارُ الرديئة التي تجولُ في قلوب أكثر هذا الخلق ...، ومنها الفكر في جُزئيات أحوالَ الناس، وماجَرَياتهم، ومَداخلهم ومَخارجهم، وتوابعِ ذلك من فكرِ النفوسِ المبطلةِ الفارغة من الله ورسوله والدار الآخرة».

ويرى ابن القيم رحمه الله أن التفكير طاقة تنفد، لذا يجب ألا يتم إحراقها في «الماجريات» وأحوال الناس، بل تستثمر في التركيز على الموضوعات النافعة والأهداف الفاضلة الكبرى، وهذا ليس في حال الاجتماع مع الآخرين فحسب، بل حتى عند خلوة المرء بنفسه.

موقع الماجريات عند أهل الكمالات:

يشير ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» إلى شيء من الحيل النفسية التي تُداهم المؤمن في سيره إلى الله، وهو أنَّه قد يأتيه من يزيّن له الاشتغال بالماجَرَيات والأحداث والأخبار من باب الظّرف والأدب والتلطف للناس، وستر الأحوال الإيمانية وإخفائها عنهم، ويكشف ابن القيم أنَّ هذا (من خدع النفوس وتلبيسها).

كما يحكي أنَّ أهل المقامات العالية في الإيمان، لا يتكلَّفون صرفَ أنفسهم عن الاشتغال بالماجريات والأخبار والأحداث وحكايات الناس، بل يجدون في أنفسهم استثقالا أصلاً، لاشتغال قلوبهم بما هو أجل وأعلى.

ومن دقائق المعالجة الجوزية التنبيه إلى أن فتح الباب للماجَرَيات يحطُّ الهِمّة وربما تعسُرُ إعادتها، كما في نصه: «فإنَّه يحطُّ الهمم العالية من أوجها إلى حضيضها، وربما يعزُّ عليه أن يحصل همَّةٌ أخرى يصعد بها إلى موضعه الذي كان فيه».

بواعث الماجريات:

ينبِّه أبو حامد الغزالي على أنَّ من الدوافع التي تجرُّ الإنسان للخوض في هذه الحكايات والأخبار غير النافعة هو الرغبة في إيناس الجلساء!

ومن الأوصاف السلبية المستعملة في لغتنا العصرية اليوم والتي نَصِفُ بها الماجريات والحكايات، وصفها بأنها « كلام فارغ»، وهذا التركيب استعمل –أيضًا– لدى علماء المسلمين فقال ابن الجوزي وهو يتوجع من أحوال بعض المنتسبين للعلم في عصره: «فخرج من يُومأ إليه بعلم أو زهد، رأى عنده البطالين يجري معهم في مسلك الهذيان الذي لا ينفع، وأهون ما عليه تضييع الأوقات في «الحديث الفارغ»، فما يرجع المريد عن ذلك الوطن، إلا وقد اكتسب ظلمة في القلب...».

كما استعمله النووي حيث قال: «وليحذر كلَّ الحذر من الحديث بما لا فائدة فيه، فإن هذا وقت فكر وذكر يقبُح فيه الغفلة واللهو، والاشتغال «بالحديث الفارغ»، فإن الكلام بما لا فائدة فيه منهيٌّ عنه في جميع الأحوال، فكيف في هذا الحال؟».

> وليحذر كلَّ الحذر من الحديث بما لا فائدة فيه، فإن هذا وقت فكر وذكر يقبُح فيه الغفلة واللهو، والاشتغال «بالحديث الفارغ»، فإن الكلام بما لا فائدة فيه منهيٌّ عنه في جميع الأحوال، فكيف في هذا الحال؟
>
> الإمام النووي

الماجريات الشبكية:

اضطراب إدمان الإنترنت:

مما يشاهد ويلحظ اليوم، وتعضده الدراسات النفسية حصول نوع من الإدمان لدى مستخدمي شبكة الإنترنت، قريبًا من الحالة التي يصبح فيها آخرون مدمنين على المخدرات والكحول والقمار، والذي يظهر أثره في الإخفاق الدراسي، وتدهور الأداء المهني، بل حتى الانفصال الأسري.

إدمان التواصل الشبكي:

هو إدمان شبكات التواصل الاجتماعية، وغرف الدردشة، وألعاب الفيديو، والقمار الإلكتروني، والمواد الإباحية ونحوها، والانهماك فيها.

التصفح القسري:

من الملاحظ أثناء الأوقات الجادّة المخصصة للمهام، كاجتماعات العمل أو الدروس، تتسلّل أيدي بعض الناس مرارًا إلى هاتفه الذكي، ويفتح شبكات التواصل، فهذا «سلوك قهري»، وهو مختلف عن العادة والإدمان بصفة «القهرية»، فالعادة تظلّ محكومة بالقدرة على السيطرة على الإرادة، بخلاف الإدمان الذي يتحول إلى سلوك قهري.

إغراء أم مهرب؟

أكّدت عدّة دراسات أن الانشغال بالإنترنت كثيرًا ما يكون «آلية هروب نفسي» للفرار من تعقيدات المهام والمطالب العلمية والعملية، كأوقات الاختبارات الدراسية أو أوقات العبادة الجادة في رمضان ونحوها.

التصفح الملثم:

من العلامات التي قد تشير إلى إدمان الإنترنت: محاولة إخفاء أو تمويه كمية الوقت المستغرقة على الشبكة خجلاً من إظهاره للآخرين، أو حتى الانتباه له والاعتراف به أمام النفس.

العمى الزمني:

من الظواهر التي كشفتها الدراسة ما يُسمى بالتواء الزمن أو الثقوب الزمنية، وهو استعارة لظاهرة فلكية افتراضية بحيث يبدو المتصل كأنما يقفز من لحظة زمنية إلى أخرى، ويقصدون بها (فقد الإحساس بالزمن) أثناء الاتصال بالشبكة.

مدمنو البيانات:

تحدَّث كثير من مشاهير المشتغلين بالبحث العلمي عن شهوة أو عقدة الاستقصاء، حيث إن الباحث كلما ظنَّ أنه استوعب منطقة البحث، انفتحت عليه أبواب مساحات أخرى، فيتشعَّب ويتفرَّع، ولا يُسعفه الوقت لدراسة هذه المعلومات المتدفقة المتناسلة، وبذات الوقت يعزُّ عليه أن يختم البحث ويستخلص النتائج وما زالت بعض معطياته مجهولة له، فتخور قواه ويدع البحث ليبدأ رحلة «مشروع بحث جديد» هروبا من الضغط النفسي!

تسلسل التصفح والنبأ المتدحرج:

عند انفتاح عالم الشبكات الاجتماعية مع طفرة الهواتف الذكية، انتقلنا إلى عناصر جديدة هي «الفورية» و«التفاعلية»، من خلال ما يمكن تسميته (مسلسل الخبر، والتعليق على الخبر، والتعليق على التعليق...)، فالمادة الشبكية منظومة روابط يُفضي بعضها إلى بعض.

لحظة التسلل:

ثمة حالات كثيرة للتسلل الشبكي، ونرصد هنا ثلاث حالات: (حالة ضغط المهام، وحالة الاسترخاء بين المهام، وحالة استفتاح العمل).

ويمكن أن يكون التسلل الشبكي في لحظة أخطر، وذلك في لحظات العبادات والاتصال برب العالمين.

الاستمراء بمواطأة النظراء:

نغفل كثيرًا عن خطورة ما نقع فيه، إذا عمت البلوى به، وكثر السائرون في ذات الطريق، فالنفس البشرية بطبيعتها «قَطَوية»، تستروح بالمشابهة كما قال ابن تيمية: «الناس كأسراب القطا تستروح بالمشابهة على تشبُّه بعضهم ببعض»، فما دام طالب العلم يرى طائفة من المنتسبين للعلم والثقافة والتغيير منخرطين في هذه الشبكات التواصلية، فيخفّ عليه تأنيب نفسه بذلك.

ما المطلوب؟

المطلوب هو التوازن في معاملة نظم الاتصالات، وإيلاء هذه المشكلة حقها من العناية، وألا تقودنا مشاهدة النظراء إلى التساكت المتبادل وتجاهل المعضلة، وخصوصًا في المرحلة الذهبية للتحصيل العلمي، ولتكن متابعتنا «متابعة منتجة» ومتناسبة مع القدر المطلوب دون طغيان على المهام الأخرى.

يمكن أن يكون التسلل الشبكي حين تتهدج التسابيح، وينجمع الهمُّ على الإخبات والاستكانة لرب العالمين، ويعكف القلب في محراب التعبُّد، وتتعاقب الواردات الرحمانية، فلا يزال شيطان الخطرات ينزغ وينفث، حتى تندسَّ كفُّ الالتفات تنثر شاشات الفضول، فيتبلبل القلب ويتشعَّث الهم، وتتبعثر الخطرات في خلجان المرادات

الماجريات السياسية:

كما مرّ سابقًا في النقطة الخامسة من التمييزات الحاكمة للدراسة فإنَّ مواقف واتجاهات المشتغلين بالعلم والدعوة مع السياسة أربعة: العَلمنة، السَّلطَنة، التعميم، التخصيص.

والمراد من إيراد هذه الأنماط هو بيان أنَّ النمط الرابع -اتجاه التخصيص- هو النموذج الصحيح في التعاطي مع الماجريات السياسية، وقد ركَّز المؤلف على مناقشة الاتجاه الثالث «اتجاه التعميم» الذي يثير إشكالية «القدر الزائد من الانهماك السياسي» أو «التخمة السياسية» من خلال التجارب التاريخية الجادة للعلماء والمفكرين في هذا العصر، وكيف تعاملوا معها، وكيف يمكن أن نستثمر المادة التاريخية في إنعاش الدافعية المشلولة.

وفيما يأتي عدة عينات تمثل تنوعًا معرفيًا وجغرافيًا وموضوعيًا في زاوية النظر النقدي:

البشير الإبراهيمي:

نشأ الشيخ البشير الإبراهيمي (١٣٠٦هـ -١٣٨٥هـ) في جوٍّ علميٍّ مميَّز، فلم يبلغ تسع سنين حتى حفظ القرآن مع العديد من متون وكتب ودواوين النحو والبلاغة والشعر والكتب العلمية.

ثم رحل إلى المدينة المنورة في العشرينات من عمره، وكان خلال مكوثه بالمدينة منكبًا على مطالعة وقراءة الكتب في المكتبات العامة والخاصة، حتى استوعب أغلب كتبها.

أنشأ الإبراهيمي مع علماء بلده «جمعية العلماء الجزائريين» لتنظيم نشاطهم في مقاومة المستعمر الفرنسي، فشرعوا ببناء المدارس في أرجاء البلاد، وأسسوا عدة مجلات علمية لبث خطاب إعلامي إصلاحي في البلاد.

وفيما يخص الماجريات السياسية: فالشيخ يميِّز بين أمرين بالنسبة للمراحل العمرية، فالأول: هو المرحلة العمرية الأولى لطالب العلم حيث يجب تركيز الجهد فيها على البناء العلمي وعدم مزاحمته بمتابعة الماجريات السياسية. والثاني: وجوب التمييز بين المتخصص السياسي وغيره في مستوى كمية الاهتمام بالماجريات السياسية.

ويقول: إنَّ «لصوص العقل» أفتك من «لصوص الأموال»...، وإنَّ «لصوص العقول» يتحكَّمون بأبنائكم في مطارح هجرتهم إلى العلم...، يصدُّونهم عن ذكر الله وعن الصلاة وعن العلم، إلى أحاديث يزوِّقونها لهم...، ويصرفونهم عن كتب العلم ودروس العلم، إلى جرائد حزبيةٍ مملوءةٍ بالكذب والنقائص والمهاترات والسباب وشغلوهم بالسفاسف الحزبية، حتى أصبح المقهى أحبَّ إليهم من الجامع، والجريدةُ أحبَّ إليهم من الكتاب، والمناقشاتُ الحزبية أشهى إليهم من المذكرات العلمية.

وركز الشيخ الإبراهيمي على إعادة تعريف السياسة، وأن الإصلاح السياسي لا يقتصر على الاشتغال المباشر بالجدل حولها، بل إن بث العلم وبناء الأخلاق في المجتمع أهم عوامل الإصلاح السياسي، وهذا يعني طبقًا لرؤية الشيخ البشير أن المشتغلين بالتعليم وتصحيح العقيدة وبث التفسير والفقه والتزكية والوعظ والتربية ونشر الثقافة الجادة ...إلخ، ليسوا أجانب عن الإصلاح السياسي، بل هؤلاء في قلب عملية الإصلاح، لأنَّهم يبنون الأمة، وكثير من الأغيار يلوك الجدل الهامشي في الأحداث، ويظن نفسه في «كابينة التأثير» وهو مجرد مراقب متفرج، تعيد الضغوط العولمية صياغة مجتمعه معرفيًا وقيميًا وهو مجرد معلّق لا يساهم في البناء والترميم.

يرى البشير الإبراهيمي أن الإصلاح السياسي لا يقتصر على الاشتغال المباشر بها وبالجدل حولها، بل إن بث العلم وبناء الأخلاق في المجتمع أهم عوامل الإصلاح السياسي، فالمشتغلون بالتعليم وتصحيح العقيدة وبث التفسير والفقه والتزكية والوعظ والتربية ونشر الثقافة الجادة، يدورون في قلب عملية الإصلاح، لأنَّهم يبنون الأمة،

التمييزات التي تفصل بين الممارسات الصحيحة والخاطئة في التعامل مع الماجريات

1. التمييز بين فقه الواقع والغرق في الواقع
2. التمييز بين المتابعة المُتفرِّجة والمتابعة المُنتِجة
3. التمييز بين المتابعة زمن التحصيل والمتابعة زمن العطاء
4. التمييز بين توظيف الآلة والارتهان للآلة
5. مواقف واتجاهات المشتغلين بالعلم والدعوة مع السياسة: اتجاه العلمنة | اتجاه السلطنة | اتجاه التعميم | اتجاه التخصيص

مالك بن نبي:

مفكر جزائري (١٣٢٣هـ - ١٣٩٣هـ)، انخرط في نشاط فكريٍّ وسياسيٍّ بين المغتربين العرب والجزائريين في فرنسا، وشارك في تأسيس «جمعية الوحدة المغاربية» تحت إشراف الأمير شكيب أرسلان، وأصبح ممثلاً للجزائر فيها، وفي مارسيليا أشرف على نادي «المؤتمر الجزائري الإسلامي»، وفي عام ١٩٥٦ أقام بالقاهرة حيث سخَّر نفسه وقلمه لخدمة ثورة التحرير الجزائرية.

نشر كتبه باللغة الفرنسية ومن أهمها كتابه شروط النهضة (١٩٤٩م) حيث أجمل فيه عامة أفكاره ونظراته ومفاهيمه ومصطلحاته.

أما الموضوعات التي عالجها مالك بن نبي فيمكن القول بأن كلامه كان يدور حول سؤالين رئيسين:

١- كيف نقاوم الاستعمار. ٢- كيف ننشئ الحضارة؟

وفيما يخص الماجريات السياسية، يقول مالك بن نبي:

إن «المنطق العملي»، أو الفعالية والعمل، هو معيار تقييم المشاغل السياسية وحركات التغيير في الواقع الذي يرصد وينتقد.

حيث يثمِّن جهود العلماء الإصلاحيين، ويتحدث عن الفعالية الحقيقة على الأرض التي تشارك فيها الأمة في بناء المدارس والمساجد ونحوها، ويسوؤه انشغال الجميع بالخطابات السياسية عن العمل والإنتاج الفعلي على الأرض، وانتقالهم للثرثرة السياسية في المقاهي، ومتابعة الماجريات السياسية.

ومن مقولاته التي تلخص هذه الفكرة: «وأن المجتمع بعد انخراطه في الخطابات السياسية التي تطالب بالحقوق وتهمل الواجبات والانهماك في الجدل حول الانتخابات هي التي ستحل أزمات الواقع وترتقي بالمجتمع وتصنع التقدم والحضارة، ولذلك انتهى أخيرًا إلى تشبيه الاستغراق في المطالبة السياسية بالحقوق بخرافات المتصوفة، وأطلق عليها لقب «الدروشة السياسية»، وأن الدروشة الصوفية تبيع الحُروز والتمائم، والدروشة السياسية تبيع أوراق الانتخابات والأماني الخيالية».

أبو الحسن الندوي:

نشأ الشيخ أبو الحسن الندوي (١٣٣٣هـ - ١٩١٤م) في بيت علم، وتعلم عدة لغات، وعُيِّن مدرسًا في جامعة (دار العلوم - ندوة العلماء)، ومن هنا اكتسب لقبه (الندوي) لانتمائه لندوة العلماء.

ويشتهر الندوي بكتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟) والذي جاء تغييرًا لطريقة التفكير السائدة حول خسائر ومعاناة المسلمين أمام التقدم الغربي، ليكون السؤال معكوسًا



بصيغة عنوان الكتاب، كما طاف الشيخ بلدان العالم الإسلامي يلتقي الدعاة والمصلحين الإسلاميين، ويتشاور معهم ويتبادل الخبرات حول إصلاح الواقع المسلم، ويلقي المحاضرات والخطب، حتى بات شخصية إسلامية عالمية.

وللشيخ الندوي جهد كبير في التصدي للتأصيل الذي طرحه الشيخ المودودي حول جعل السلطة هي أساس رسالة الإسلام، وأوضح الشيخ الندوي أن هذا التفسير سيفضي لأربعة مآلات، هي:

١. إدانة التاريخ الإسلامي بأنه لم يفهم أساس القرآن.

٢. تضخم حضور السياسة والمشروع السياسي والماجريات السياسية في الخطاب الدعوي على حساب بقية جوانب الدين.

٣. التزهيد في مقاومة الشركيات التي حاربها الأنبياء.

٤. إعادة تأويل الشعائر بأنها وسائل لتحقيق الغايات السياسية الإسلامية.

وهكذا عالج الشيخ الندوي مسألة الاستغراق في الماجريات السياسية من زاوية «التأصيل الشرعي»، وهذه المعالجة لم تصدر من شخصية على هامش الأحداث، بل هو شخصية فاعلة مؤثرة، فضلًا عن كونه أحد النجوم في تاريخ الدعوة المعاصرة، سواءً بالإنتاج في الفكر الحديث، أو بالمشروعات العملية المؤسسة في الهند وخارجها.

عبد الوهاب المسيري:

يُنظر للدكتور عبد الوهاب المسيري (١٣٥٧هـ-١٤٢٩هـ) باعتباره «شخصية فكرية مرموقة» وباعتباره «صاحب مشروع فكري»، وأشهر أعماله التي لها حضور واهتمام كبير: (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - موسوعة «إشكالية التحيز» - العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة - وسيرته التي نشرها في كتاب ضخم بعنوان «رحلتي الفكرية»).

ويمكن القول بأن منطقتي العمل في كتابات المسيري «الفكرية» هما: دراسة وتفسير الظاهرة اليهودية معرفيًا، ونقد الحداثة الغربية ومنتجاتها الفكرية.

وفيما يخصُّ الماجريات السياسية، يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري أنَّ مشروعه الفكري مشروع «معرفي»، ويرى أنَّ هذا البعد المعرفي يتطلَّب الاجتهاد في التمعُّن والتأمُّل المنظَّم للوصول إلى الكلِّيات والبنى والمنظورات، ويرى أن متابعة الأحداث والماجريات اليومية عبر الإعلام يجرُّه إلى دوامة الحدثية والوقائعية، فيشل قدرته على الإنتاج ويحوله إلى «كاتب حدثي».

وطرح المسيري عدَّة مفاهيم منها مفهوم «الانفصال المؤقت عن الواقع»، ومفهوم «العزلة النسبية»، ومفهوم «الانغلاق النسبي»، حيث يقول:

«كنت في الولايات المتحدة عام ١٩٦٧م حينما وقعت النكسة، وقد احتفل الإعلام الأمريكي احتفالا هستيريًا بالانتصار الإسرائيلي، ومع هذا فقد بدأت رسالتي للدكتوراه بعد الحرب مباشرة، متجاهلًا الصحف اليومية والتلفزيون والهستريا الإعلامية، ثم نشبت حرب سنة ١٩٧٣م وكنت مشغولًا بكتابة موسوعة ١٩٧٥م، والتصقت زوجتي مثل معظم المصريين بالتلفزيون، واستمررت أنا في عملي ولم أتوقف..».

فبرغم ضخامة هذه الأحداث وانشغال الناس حينها بالمتابعة التفصيلية للإعلام، إلا أنه استمر في جعل علاقته بعالم الماجريات السياسية علاقة مجملة ثانوية ولم ينهمك فيها عن إنجاز مشروعه المعرفي.

فالدرس الذي حرص المسيري على إيصاله هو: أن الإنتاج العلمي الذي يعتني بالكليات والبنى المعرفية قد يحتاج إلى استقلال نسبي عن الانهماك في متابعة الماجريات السياسية والأحداث اليومية، وأنه يكفي الاطلاع على مجملات هذه الأحداث، وأن الإنتاج في هذه الحقول هو من الإصلاح.

د. فريد الأنصاري:

من خلال استعراض سير العلماء والدعاة الذين اعتنوا بإشكالية (منزلة السياسة في الخطاب الدعوي) وما يتفرع عنها من الاشتغال بالماجريات السياسية، يبدو الدكتور فريد الأنصاري من أغزرهم إنتاجًا حول هذه الإشكالية والعناية بتحليلها ودراستها والتأصيل حولها.

وكان نشاط الشيخ الأصولي القرآني د.فريد الأنصاري (١٣٨٠ – ١٤٣٠ هـ)، يدور حول عدة مستويات منها:

المحور العلمي الأكاديمي، ومحور الكتابة التزكوية، ومحور تجربة العمل الإسلامي الدعوي-الحركي، ومحور الكتابة النقدية التأصيلية في «الفكر الدعوي»، وكان للشيخ كتابات إيمانية بلغة تجديدية، وتجارب غنية في العمل الدعوي الحركي المؤسسي.

التضخم السياسي:

وممّا ركّز عليه الدكتور فريد خلال تجربته الحركية في العمل الدعوي، أنَّ الشباب انجفل في الاستغراق في الماجريات السياسية على حساب التزكية الإيمانية، وتورَّمت الماجريات عندهم وضمُرت التغذية الإيمانية.

وللدكتور رحمه الله في تأصيل إشكالية العلاقة بين الحقل السياسي والمشروع الدعوي دراسات أخرى مثل: «التضخم السياسي، الأخطاء الستة، الفطرية»، وكان يتحزّن ويلتعج وهو يروي قصة شباب كان يراهم من حوله يذوقون حلاة الإيمان ثم ما زالت بهم الماجَرَيَات السياسية حتى فقدوا الشعور بهويتهم الإسلامية، وحتى تحوّلوا من دعاة يوظفون السياسة لإصلاح المجتمع، إلى مجرد أدوات توظفهم السياسية للتربيت على الغطيط الاجتماعي.

> **الدوران في تروس الماجَرَيات الفكرية والسياسية يزيح المرء عن الجهود الجادة والمنظمة في المعرفة والإيمان الإصلاح، وينتهي بصاحبه إلى حالة (كثرة الثرثرة وشح العمل)، ويخلق الوعي المزيف بأنْ يتوهم المرء أنّه في كبد مشروعات الإصلاح، بينما هو بعيد كل البعد عن العمل.**

وفي الختام:

فالدوران في تروس الماجَرَيات الفكرية والسياسية يزيح المرء عن الجهود الجادة والمنظمة في المعرفة والإيمان والإصلاح، وينتهي بصاحبه إلى حالة (كثرة الثرثرة وشح العمل)، ويخلق الوعي المزيف بأنْ يتوهم المرء أنّه في كبد مشروعات الإصلاح، بينما هو بعيد كل البعد عن العمل.

وبعد هذه الجولات في الماجريات الشبكية والفكرية والسياسية ستبقى المسألة أولًا وآخرًا مسألة «توازن»، ويجب أن لا نستسلم لحالة الانجراف في دوامة الماجريات بسبب تتابع كثير من الناس على ذلك، ويجب أن تكون هناك نقطة توقف تعاد فيها الحسابات بشكل دقيق، فبسبب هذا الغوص في الماجريات اليومية باتت أنفاس الزمان تغادر فارغة، وجمعية القلب على الله تتبعثر، والكتب المشتراة على حالها منذ آماد، والإنتاج الإصلاحي قد تجمّد، وآل الأمر إلى «كثرة الكلام وقلة العمل» ولا شيء أكثر حزنًا من أن يتوهَّم الماجرياتي أنَّه في قلب عملية التغيير وفقه الواقع وهو مجرَّد مُراقب ومُتفرج لا غير.

بأقلام القراء

خواطر من الجمعة الأولى

معاوية مروان الجندي

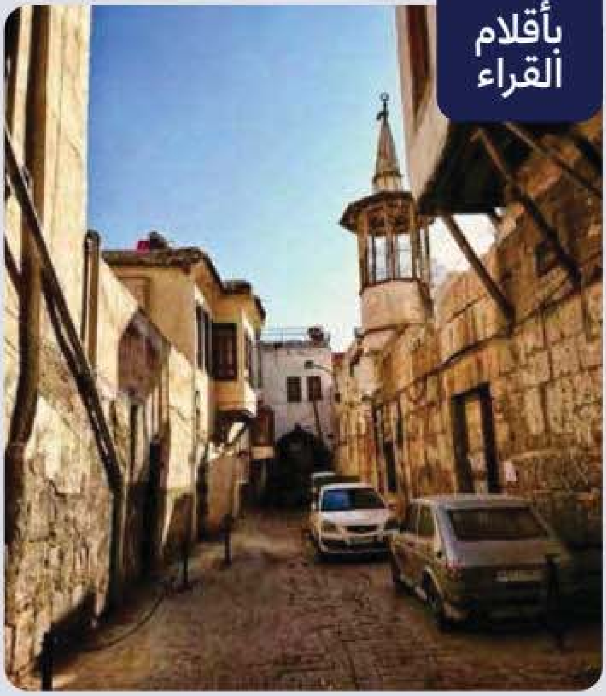
باشر الإمام صلاة الجمعة بالتكبير وقراءة سورة الفاتحة، لم تكن هذه الصلاة كغيرها من صلوات الجمعة، ولم تمر سورة الفاتحة على مسامعي كالمعتاد. فهذه صلاة الجمعة الأولى بعد فترة منع الاجتماع لأداء الجُمع والجماعات في المساجد. وأما الفاتحة فلم تتغير ولم تتغير تلاوة الإمام لها، وإنما الذي تغير هو التفاعل الذي أحدثته الآيات في نفسي.

قرأ الإمام: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم» فإذا بي أتوقف عند هاتين الآيتين وأشرد عن باقي القراءة. شعرت بأننا في هذه الصلاة بالتحديد يجب أن نكرر تلاوتهما عدة مرات.

«الحمد لك يا ربِّ» حمدًا كثيرًا أن أنعمت علينا بالعودة إلى بيوتك لحضور صلاة الجمعة، نحمدك حمدًا كثيراً طيبًا مباركًا فيه ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد.

يا رب أنت «الرحمن الرحيم»، فأنت بلطفك رَحِمتنا وسلّمت ديننا بأن رسّخت في قلوبنا التسليم لقضائك وقدرك، وبأنك وحدك النافع الضار. ورَحِمتنا بسلامة أبداننا من هذا الداء فاستطعنا أن نعود لمساجدك عودة المشتاقين المتلهفين. فيا رب أدِم علينا نعمك وارزقنا الشكر عليها آناء الليل وأطراف النهار، لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.





نِعمٌ أَلِفْناها فَجهِلنَاها

أحمد حمشو

خرج من بيته نازحًا، حاملًا بعض المتاع الذي يُعينه على البرد القارس، نظر إلى منزله النظرات الأخيرة، تذكّرَ النِعم التي كان ينعم بها، والتي ذهل عن استشعارها وعن شكرِها، وهي سكنه في بيته، ومع أفراد عائلته، ينعمون بِنِعَم لا يمكن أن يحصيها، ففيه كان الدفء والراحة والمطعم والمشرب.

غادر وقلبه يئنّ ألمًا، تتواتر نبضات قلبه، ويرى مع كل نبضة نعمةً من النعم، كان آمنًا في بلده، يذهب ويعود آمنًا، وأولاده يلعبون ويذهبون إلى المدرسة آمنين، وفي الحي جيران اعتاد قربهم، وأمام باب دُكّانه، تذكّرَ سعيه لاهثًا لجني المال، ظانًّا أنه أشقى الناس معيشة، بينما شعر الآن أنه كان في نِعم كثيرة وعظيمة، كان يملك قُوت يومه، ويُنفق على أهله، ومعه ما يكفيه.

أمام مسجد الحي شعر بالندم؛ فالمسجد قريب، ومع ذلك لم يدخله إلا لصلاة الجمعة، غادر وفي كل متر يمشيه، يتذكّرُ نعم الله عزّ وجلّ، نِعَمًا جهلها؛ لأنّه ألفها، واعتاد وجودها، فنسي شكرها، والآن عندما فقدها عرفها.

قال ﷺ: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حِيزت له الدنيا) أخرجه الترمذي.

أبناؤنا أكبادنا

تسنيم علي خليل

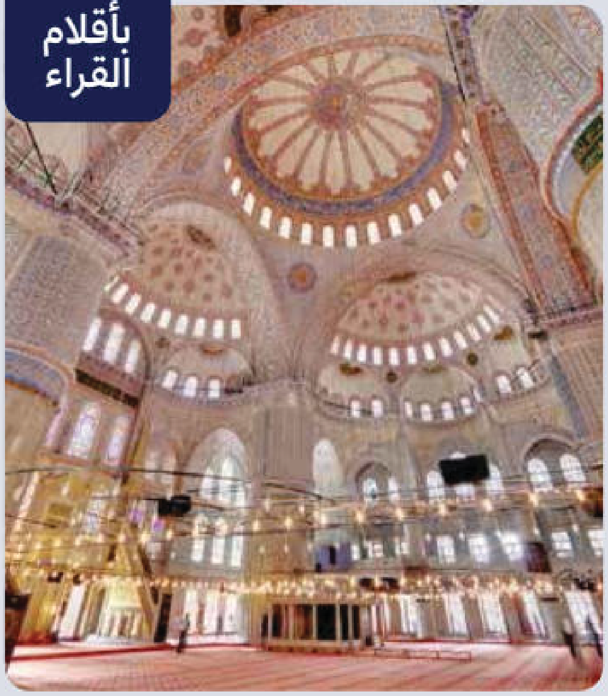
خلقنا الله على هذه الأرض لأهداف سامية وجميلة، مثل عبادته وطاعته وتسبيحه، وعمارة الأرض وحرثها واستخراج خيراتها، ورعاية الإنسان وتعليمه وتربيته، وهيأ الله لكل منا دورًا يحسنه ويسهم به في حركة الحياة الدائبة، ويحقق به شيئًا من الأهداف التي وجدنا للسعي نحوها.

ومن أسمى أدوار المرأة رعاية الأبناء فلذات الأكباد وشغاف القلوب! الذين يملؤون الحياة جمالًا وروعة، والبيت سعادةً ومرحًا، كالبذور الصغيرة التي تحتاج اهتمامًا ورعاية، تمامًا كسقي البراعم وتقليم شوكها وحمايتها من الآفات، حتى تنمو وتزهر وتثمر، حتى يصل الأبناء إلى مستوى يعرفون من خلاله دورهم في الحياة، ويأخذون مكانتهم في هذا الكون الفسيح بالحرث والعمارة والعبادة.

إن رعاية الأبناء ليست أمرًا سهلاً أو عملاً تلقائيًا، فكم نحن بحاجة إلى السؤال والقراءة والتعلُّم حتى نتغلَّب على الصعوبات التي تواجهنا وتواجههم، وهم يكبرون أمام أعيننا، وبين أحضاننا، وكم نحن بحاجة للحكمة والمعرفة حتى نتغلَّب على عواطفنا ونهذِّب أخلاقهم ونوجِّههم فيما يُصلح دنياهم وأُخراهم.

وليس أجمل من رؤية ابتسامة النجاح على مُحيا الأبناء بعد تغلبهم على العقبات والصعاب، موقفٌ أحبُّ إلى النفس من تلقي الهدايا الجميلة والعطايا المحبّبة.





فما ظنكم برب العالمين!

حسان رضا حجازي

تعترضنا خلال مسيرتنا في هذه الحياة مصاعب عديدة وعوائق شديدة.

البعض منا يستسلم ويُنيخ لها راحلته، والبعض الآخر يتصدر لنشر الشائعات المحبطة والحوادث المثبطة.. لكن القلة القليلة من يحاولون جاهدين تجاوزها بأقل الضرر وأفضل العبر.

هنا يأتي السؤال: فما ظنكم برب العالمين؟

سؤال لو عرفنا حقيقته ومعناه وهدفه ومغزاه، لعلمنا علم اليقين أنَّ كلَّ شيءٍ بأمر الله وحده وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنَّه لا حول ولا قوة إلا به، وأنَّه لا ملجأ منه إلا إليه، وأنَّه على كل شيء قدير.

وكونه تعالى على كل شيء قدير يحتِّم علينا وجوبًا ضرورة حسن الظن به في جميع أحوالنا ومسارات حياتنا، فانتظار الفرج، وتوقع الأفضل، ودوام المحاولة وعدم اليأس، ونشر التفاؤل، كلها حسن ظنٍّ بالله ويُثاب العبد عليها.

فلنُعاهد أنفسنا أن نُحسن ظنَّنا بخالقنا، فهو المقدِّم والمؤخِّر، وهو المعطي والمانع، وهو اللطيف الخبير. وإذا استقرَّ ذلك في قلوبنا، سنعبر حينها كل الصعاب بإذن الله متفائلين بواقع أفضل وغدٍ أجمل.

أنت على خير

د. خير الله طالب

أنت على خير إذا نجوت من خطرين يتنازعانك بعد رمضان: أنْ تكون مزهوًّا باجتهادك فتبطله، أو أن لا تجد أثرًا لرمضان في حياتك بعده.

ومما يديم الخير بعد رمضان دون عُجب أو فتور:

أولاً: العناية بتثبيت عبادة واحدة بعد رمضان، من تغيير عادة، أو إصلاح علاقة، أو أداء حق، أو تحسين عبادة، أو تهذيب خلق، أو محاسبة نفس، أو قرب من القرآن، أو كثرة ذكر. وبهذا ترتفع بكل رمضان درجة في التزكية والمداومة، بدل التذبذب والتحسر.

ثانيًا: استشعار نعمة التوفيق والخوف من ردّ العمل، فذلك يُورث التواضع ويجلب العون والمزيد. وقد ذكر الله سبحانه من صفات المجتهدين في الطاعات أنّهم يعملونها وهم خائفون فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠-٦١]. يقول مالك بن دينار: «الخوف على العمل أن لا يُتقبَّل .. أشدُّ من العمل»(١).

ثالثًا: تقوية القلوب وتطهيرها بالتفكُّر وحسن الظنّ. والتفكّر يكون في خمسة: عظمة الله وتدبيره، وفي تدبر كتابه، وفي النعم المادية والمعنوية، وفي عيوب النفس، وفي واجب الوقت والتوبة. ومثل هذا التفكّر يقول فيه أبو الدرداء رضي الله عنه: «التفكُّر ساعة خيرٌ من قيام ليلة»(٢)، وهذا التفكر ينبغي أن ينقله إلى حسن الظن بالله تعالى والمؤمنين، و«المؤمن أحسن الظنّ فأحسن العمل» كما يقول الحسن»(٣).

رابعًا: تعويد النفس على تلاوة القرآن في الصلاة، لحديث: (... فثلاثُ آياتٍ يقرأ بهنّ أحدُكم في صلاته، خيرٌ له من ثلاث خَلِفاتٍ عِظام سِمان)(٤). وقال النووي: «أفضل القراءة ما كان في الصلاة»(٥). وهو يعين على خشوع الصلاة، وزيادة الفهم والحفظ، والتبكير للفرائض، وتثبيت الرواتب، والاستزادة من النوافل وصلاة الليل.

خامسًا: اجتناب احتقار ما قَدِر عليه العبد أو تعيّن عليه فعله، وإن رآه أقلّ فضلاً مما تطمح إليه نفسه. قال ابن عبد البر: «لا ينبغي للعاقل المؤمن أن يحتقر شيئًا من أعمال البر، فربما غُفِرَ له بأقلّها»(٦). ومن عجيب الفقه في مراتب الأعمال قول محمد بن المنكدر: «بتُّ أغمِزُ رِجل أمي، وبات عمر يصلي، وما يسرني أنَّ ليلتي بليلته»(٧). وفي ظروف الحياة المختلفة قد يقترن بحال العبد ما يجعل اليسير الذي يقدّمه يسبق الكثير الذي يقدّمه غيره (سبقَ دِرهمٌ مائةَ ألفِ درهمٍ)(٨).

سادسًا: سياسة النفوس بالتدرّج معها مما تحب إلى ما يثقل عليها من نوافل العبادات، قال طاووس: «أفضل العبادة أخفّها»، قال ابن عبد البر: «يريد أخفها على القلوب وأحبها إلى النفوس؛ فإنّ ذلك أحرى أن يدوم عليه صاحبه حتى يصير له عادةً وخُلُقًا»(٩). وهو مفيد في رفع همة النفس وفي تربية الآخرين.

تلك إشارات ليدوم الخير بعد رمضان، نحتاجها لأنفسنا وغيرنا.

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٣٧٧/٢).
(٢) الزهد، لأبي داود (١٩٩).
(٣) الزهد لأحمد، (٤٨٢/١).
(٤) أخرجه مسلم (٨٠٢)، والخلفات: الحوامل من النوق.
(٥) الأذكار (١٠٣/١).
(٦) التمهيد (١٢/٢٢).
(٧) الزهد لأحمد بن حنبل، (٧٢/١). والغمز هو التدليك باليد.
(٨) أخرجه النسائي في سننه (٢٥٢٧).
(٩) التمهيد (١٩٦/١).



هيئة الشام الإسلامية

من إصداراتنا في السياسة الشرعية



هيئة الشام الإسلامية

ترقبوا قريباً..

دبلوم هيئة الشام الإسلامية في
فقه الخلاف والحوار والعمل المشترك

